هارون الرشيد

د. أحمد أمين





هرون الرشيد

تأليف

الدكتور أحمد أمين بك

دار الهلال بمصر

الغلاف للفنان:
محمد أبو طالب



مقدمة

طلبت الى دار الهلال أن أضع كتابا عن هرون الرشيد ، فاغتبطت بهذا الطلب لأنى أحبه ، وربما كان سبب حبى له أنه رجل عاطفى ذواق ، يخضع للمؤثرات الوقتية ، فيصلى مائة ركعة كل يوم ويحج ماشيا • ويهيم من ناحية أخرى بالجمال والغناء ومجالس الشراب • ويحدثه أبو العتاهية حديث الزهد فيبكى حتى تخضل لحيته ، ويقول له ابن أبى مريم نكتة فيضحك حتى يستلقى على قفاه ، ويرضى عن البرامكة فيطلق لهم العنان ، ويغضب عليهم فينكل بهم أشد النكال

ورجل كهذا يكون ـ عادة ـ صريحا صادقا •• وأحبه أيضا لأنه أعلى شأن الشرق فى الغرب • فكلما ذكر هرون الرشيد ، تخيل الغربيون الشرق بفتنته العجيبة وجاذبيته الساحرة ، والسبب فى ذلك كتاب ألف ليلة وليلة وما أضفت عليه علاقته بشارلمان من فخفخة واجلال ، وتوالى الوفود منه واليه ، وحركة التجارة بين الشرق والغرب فى أيامه الى غير ذلك

ويضاف الى هذا كله ما رزق من حسن حظ •• فكثير من

الخلفاء قبله وبعده كمعاوية ، وعبد الملك بن مروان ، وهشام ابن عبد الملك ، وعبد الرحمن الداخل ، وعبد الرحمن الناصر ، والمأمون ، كانوا خيرا منه

وغلطة كغلطة البرامكة كانت تكفى لأن تطوح بذكره ، وتصغر من شأنه .. ولكن هى الظروف وهو الحظ ، حتى ان بعض كبار المؤرخين كابن خلدون نصبوا أنفسهم للدفاع عنه وتصويره كأنه نبى كريم لا يصح أن يغنى ولا أن يشرب ولا أن يزل

كل هذا ونحوه ، جعله محبوبا عالى الذكر بعيد الصيت

وقد عمدت الى كتابته بأسلوب عصرى سهل يناسب جمهور القراء ، فلم أتعمق فيه تعمقا يجعله ثقيلا ، ولا أغرقته بذكر المصادر كما يفعل الجامعيون ومن نحا نحوهم.
والله يرزقه من الحظوة ما رزق الرشيد

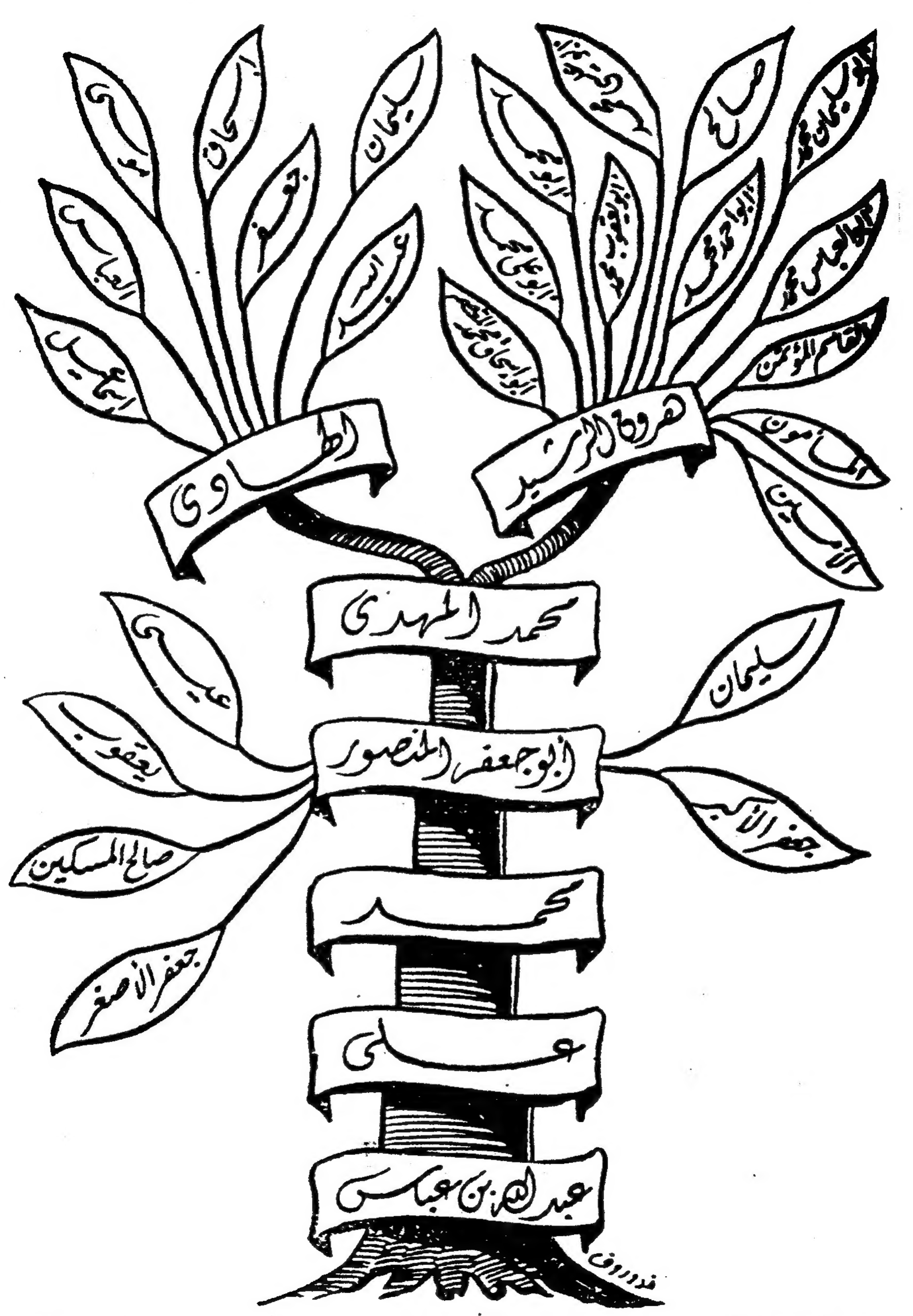
أحمد أمين



هرون الرشيد بريشة « جبران خليل جبران »

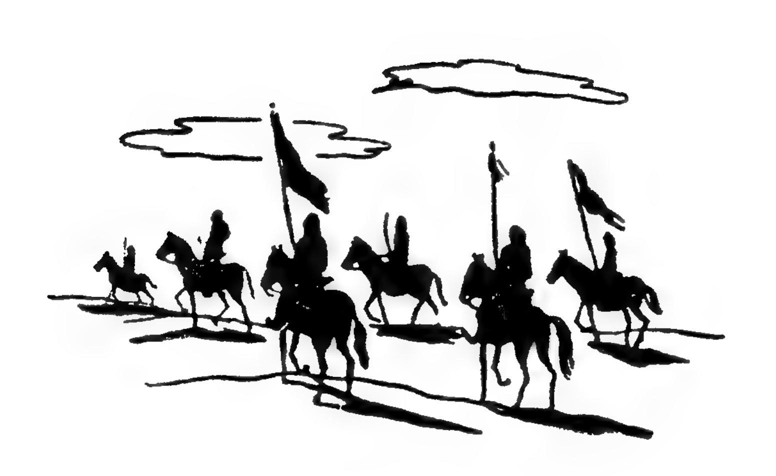
الرشيد فى سطور

- ولد هرون الرشيد ببلدة « الرى » بطبرستان فى آخر ذى الحجة سنة ١٤٥ هـ وقيل فى أول المحرم سنة ١٤٩ هـ
- بويع بالخلافة يوم الجمعة ١٢ ربيع الأول سنة ١٧٠ هـ فى صبيحة الليلة التى مات فيها أخوه الخليفة الهادى
- استوزر الرشيد سنة مبايعته بالخلافة يحيى بن خالد البرمكى ودفع اليــه بخاتمه قائلا : « قد قلدتك أمر الرعية ، فاحكم فيها بما ترى »
- فى سنة ١٧٦ هـ خرج عليه يحيى بن عبد الله بالديلم ، فأرسل اليه الفضل بن يحيى فى خمسين ألفا ، وأعاد الأمن الى نصابه . وقد تمكن من اخماد عـدة فتن فى الجزيرة ودمشق فى سنتى ١٧٧ ، ١٧٨ هـ
- فى سنة ١٧٥ هـ عقد الرشيد لابنه محمد ابن زوجتـه زبيدة بولايته العهد من بعده ، ولقبه « الأمين » وعمره وقتئذ خمس سنوات
- فى سنة ١٨٢ هـ بايع الرشيد لابنه « عبد الله » بولاية العهـد بعد محمد الأمين ، وولاه خراســـان ، ولقبه «المأمون» وبايع لابنه القاسم بولاية العهد بعد المأمون ، ولقبه « المؤتمن » وولاه على الجزيرة والثغور
- خرج لمحاربة رافع بن الليث بخراسان فى جيش كبير من « الرقة » سنة ١٩٢ هـ وقد بدأ مرضه
- مات سنة ١٩٣ هـ بعد أن قضى فى الولاية ٢٣ ســـنة وشهرين و ١٨ يوما



شجرة هرون الرشيد من جده عبد الله بن عباس بن عبد المطلب جد النبى محمد(ص)

ميلاد دولة



للدول عمر كالذى للأفراد .. طفولة ، ومراهقة ، وشباب ، وكهولة ، وشيخوخة . وهى كالأفراد أيضا .. بعضها يولد هزيلا مريضا يموت فى مهده أو بعد مهده بقليل ، وبعضها يولد صحيحا معافى تمتد حياته ويطول عمره ، وهى كذلك كالأفراد .. يعتريها أحيانا موت الفجاءة ، وأحيانا يدب الفناء فيها وتموت عضوا فعضوا حتى ينتهى أجلها ، وهى أيضا قد يطول عمرها وقد يقصر ، والملاحظ أن الدول فى أول نشأتها كانت قصيرة العمر ، ثم تعلم الخلف من السلف واتقوا أخطاءهم .. فطال عمرها . فنجد مثلا أن عمر دولة الخلفاء الراشدين كان نحو ثلاثين عاما . فجاءت الدولة الأموية فعاشت نحو مائة عام . ثم جاءت الدولة العباسية فعاشت أكثر من خمسمائة سنة

والدول الغربية الحديثة تعلمت من أسباب سقوط الدولة اليونانية والرومانية ، واحترست من أن تقع فى مثل أمراضها .. فطال عمرها كثيرا . ولا يعلم الا الله منتهاها . ولكنها على كل حال الى النهاية المحتومة للأفراد والأمم وهى الفناء . والدولة الأموية التى سبقت الدولة العباسية أخذت فى الفناء من بعد وفاة عمر بن عبد العزيز ، واستمرت فى طلوع الروح نحو ثلاثين سنة

أسباب سقوط الدولة الأموية

ولسقوط الدولة الأموية أسباب : منها أن الأمويين شددوا النكير على العلويين وساموهم الخسف . وكان أولاد الحسين بعد مقتل أبيهم صغارا . فلما مضى الزمن شبوا وحاولوا أن يأخذوا بثأر أبيهم . وكان أول حجر فى سقوط

بنى أمية قتل سليمان بن عبد الملك لأبى هاشم · وقد عهد أبو هاشم عند قتله الى محمد بن على رأس العباسيين ، وكان الأمويون يحذرون العلويين أكثر مما يحذرون العباسيين· ولذلك أمكن العباسيين ، أن يبثوا دعوتهم ضد الأمويين فى اطمئنان

والثانى أن الدولة الأموية كافأت رجالها العظام أسوأ مكافأة ، والرجال العظام فى الدول قليل· فلما فقدت الدولة الأموية رجالها فقدت جانبا عظيما من قوتها · فكان من رجال الدولة الأموية المخلصين موسى بن نصير فاتح الأندلس ، وخالد بن عبد الله القسرى ، ويزيد بن المهلب، وقتيبة بن مسلم · ومن خطأ الخلفاء الأمويين ظلمهم لأمثال هؤلاء الرجال ، فقتلوا بعضهم كخالد بن عبد الله ، وقتيبة ابن مسلم ، ويزيد بن المهلب ، وزج بموسى بن نصير فى السجن

وسبب ثالث ، وهو تباعد أطراف المملكة بسبب الاتساع فى الفتوح · فبلغت دائرة ملكهم ما لم تبلغه قبلهم غير دولة الرومان ، فما بين النهرين المعروف بالجزيرة ، وايران ، وقسم من الأفغان ، والتركستان ، والقوقاز ، وأرمينيا ، وشبه جزيرة العرب ، وسوريا ، ومصر ، والمغرب ، والأندلس ، كلها دخلت فى حوزة سلطانهم · وضبط هذه الأقطار المختلفة المترامية الأطراف صعب جدا ، وخصوصا اذا كان الخلفاء ليسوا بالأقوياء الحازمين ، بل من الضعفاء الذين يجرون وراء شهواتهم · ولذلك كان من حزم الدولة العباسية ومن قواعدها الاساسية عدم التوسع فى الفتوح·

يضاف الى ذلك ما حبا الله به العباسيين من أمثال أبى مسلم الخراسانى الذى نجح نجاحا باهرا فى الثورة على الأمويين والدعوة للعباسيين . فاستطاع بذلك أن ينتقم من العرب جزاء وفاقا لما انتقم العرب من الفرس فى مبدأ الاسلام . وكان رجلا عظيم الشخصية جبارا أدار الحرب على الأمويين فى مهارة ونشاط وقسوة حتى نجح . ومع ذلك كافأه أبو جعفر المنصور أسوأ مكافأة بقتله، بعد أن مهد له الطريق وأزال منه كل ما اعترضه من عقبات .. شأن الأمويين فى نوادر رجالهم ، وشأن الرشيد - فيما بعد - فيما فعله مع البرامكة

كل هذه الاسباب تجمعت ، وكانت سببا فى سقوط الدولة الأموية وقيام العباسيين بعدهم ينكلون بهم ويفتكون بكل من عثروا عليه منهم

الأمويون والعباسيون

على كل حال ، ما أكبر الفرق بين الدولة الأموية والدولة العباسية .. كان الأمويون يحكمون البلاد حكما عربيا فيه بساطة وفيه عيوب القبلية . أما العباسيون فكانوا يحكمون البلاد حكما فارسيا . وكانت قصور الخلفاء الأمويين قصورا فخمة بسيطة كالذى نشاهده من آثارهم . وكانت قصور العباسيين فخمة معقدة . وكان المثل الأعلى للأمويين أمراء غسان وأمثالهم . أما المثل الأعلى للعباسيين فالأكاسرة . وكان الولاة فى العهد الأموى ذوى عقلية عربية أمثال : زياد بن أبيه ، والحجاج ، وخالد بن عبد الله القسرى . أما

فى الدولة العباسية فوزراؤهم أمثال البرامكة ممن ينزعون نزعة فارسية وهكذا ...

وربما اتفق الأمويون والعباسيون على أشياء أهمها شيئان :

أولا : حصر الخلافة فى بيت واحد .. هؤلاء يحصرونها فى الأمويين ، وهؤلاء يحصرونها فى العباسيين . وتجرى الخلافة على قانون الوراثة لا على قانون الشورى ، ورأى أهل الحل والعقد . وكذلك يتفقون فى أنهم قلبوا الخلافة الى ملك عضوض

الملك العضوض

والفرق بين حكم الشورى والملك العضوض ، أن الأول لا ينحصر فى بيت ولا فى ولى عهد ولكن يستشار أهل الحل والعقد فيمن يصلح . ولذلك قالوا ان بيعة عمر لأبى بكر، كانت فلتة وقى الله المسلمين شرها

أما الثانى ، فكان الخليفة يعمل على تولية من رأى أن يخلفه ولو كان غير أهل للخلافة ، كما فعل معاوية مع يزيد وكما فعل الرشيد مع الأمين

ثانيا : أن كلا من الأمويين والعباسيين خافوا العلويين وكرهوهم وسلطوا عليهم سيوفهم ، مما ألف سلسلة طويلة كالتى رواها أبو الفرج الأصبهانى فى كتابه « مقاتل الطالبيين »

ولقد تكاتف العباسيون والعلويون على اسقاط الدول الأموية ... ثم انفرد العباسيون بالدعوة على أساس آخر

نشأة الدولة العباسية

ذلك أن الذى قام بهذه الدعوة أبو العباس عبد الله بن محمد ، وكان على جانب عظيم من الدهاء والسياسة . فأسس نظرية جديدة خلاصتها أن زعامة الاسلام الروحية بعد مقتل الحسين لم تنتقل الى على بن الحسين ، انما انتقلت الى محمد بن الحنفية الذى أوصى بهذه الزعامة الى ابنه عبد الله أبى هاشم. وهذا أوصى عند وفاته الى محمد بن على ابن عبد الله بن عباس. وهذا أوصى الى أبى العباس عبد الله ابن محمد ، ومن بعده الى أبى جعفر المنصور . فراجت هذه الدعوة فى بعض البلاد وعاونهم فى ذلك أبناء فاطمة أنفسهم، ظنا منهم أن تعاون البيتين أولا يكسبهم قوة حتى اذا أسقطوا جميعا الدولة الأموية سهل تغلبهم على بنى عبد الله ابن عباس

وكانوا فى ذلك مخطئين .. بل كان الأمر هو العكس. فانه لما استطاع البيتان اسقاط الدولة الأموية، تغلب بيت العباس على بيت فاطمة وأصبح للعباسيين خصمان كبيران: الأمويون والعلويون . فأخذوا ينكلون بهم جميعا . وقلما خلا خليفة عباسى من قتل امام علوى . ولما حضرت الوفاة محمد بن على بن عبد الله بن عباس أوصى بالخلافة لأولاده : ابراهيم المعروف بابراهيم الامام ، وأبى العباس عبد الله ، وأبى جعفر الملقب بالمنصور . فتولى أبو العباس الخلافة ، ووضع للدولة بعض أسسها ، ونكل بأعدائها . وجاء أبو جعفر المنصور فسار سيرة أخيه ، وأكمل الأسس ، وأتم تشريد الأعداء

وجاء بعده المهدى فصادف جماعة ينقمون على الاســـلام نجاحه ويودون ارجاع الدولة الفارسية كما كانت ، وديانة الفرس الوثنية كما كانت . فقتلهم المهدى تحت ستار أنهم زنادقة ، وعهد بالخلافة الى ابنه الهادى ثم الرشيد... فجاء الهادى يريد أن يخلع الرشـــيد ويحمل الناس على البيعة لابنه جعفر . وكان الهـــادى شرسا قويا جبـارا . وكان الرشيد لينا مطواعا. فلما علم من أخيه ذلك مال الى اجابته. ولكن عصـــاه يحيى البرمكى وكان ولى أمره اذ ذاك ، ولما اشتد الهادى على يحيى البرمكى والرشـــيد ، نصح يحيى للرشيد بأن يسافر الى مكان بعيد ليختفى عن أعين الهادى فلا يذكر هذه المسألة الا لماما

على أريكة الخلافة



هرون الرشيد على أريكة الخلافة

تولية الرشيد

كان من حسن حظ الرشيد أن لم تطل خلافة الهادى ، فمات سريعا ومات فجأة .. فلم يغير البيعة . وتولى الرشيد مكانه وجلس على العرش ، ونال حظوة عظمى . فلم يعرف الغرب عن الشرق كما عرف عن الرشيد ، وذلك لأسباب كثيرة . أولها : شدة العلاقة التجارية والسياسية بين الرشيد وملوك أوربا فى ذلك العهد . وثانيها ما صورته كتب الأدب والشعر عن مجالس الرشيد . ثالثها القصص والحكايات التى روتها عنه ألف ليلة وليلة ، من صور رائعة جذابة .. هذه صورة له يتعسس بالليل مع جعفر البرمكى ومع خادمه مسرور فى أزقة بغداد ، وهذه صورة أخرى يمتحن فيها الفتيات ، وهذه صورة ثالثة فى المنادمة على الشراب والغناء ، وهذه صورة رابعة ينصف فيها المظلوم ويحقق العدالة . وعلى الجملة فقد صور ألف ليلة وليلة الرشيد تصويرا بديعا لطيفا ، كما صور لنا أسواق بغداد وكيف تزخر بالسلع وكيف تتوارد عليها من كل مكان ، وحركة التجارة نشيطة مليئة

وتصور لنا مجالس الرشيد وما فيها من بذخ وترف ، الى غير ذلك مما يعد دعاية واسعة للرشيد ...

الرشيد وألف ليلة

وهنا نتساءل : لماذا كانت ألف ليلة وليلة داعية للرشيد من دون غيره من كبار خلفاء بنى أمية كعبد الملك بن مروان وهشام بن عبد الملك ، أو من كبار بنى العباس كعبد الله

ابن محمد وأبى جعفر المنصور . وكلهم فى الحقيقة أعظم من الرشيد وأفخم وأعدل ...

فكرت فى ذلك طويلا .. فاهتديت الى جواب قد يكون صحيحا ، وهو أن ألف ليلة وليلة ترجم فى عصور مختلفة، وزيد عليه فى عصور مختلفة . فكان أول ما ترجم عن الفارسية هذا القسم البغدادى فى عصر الرشيد . فتملقه المؤلفون لظهور الكتاب فى أيامه . واتقاء لما حدث لعبد الله ابن المقفع حين ترجم كليلة ودمنة . وقد أومأ ايماءة خفيفة الى ظلم الخلفاء والحكام . وذلك بوصفه للملك العادل وما ينبغى أن يكون عليه ، ونقمته على الملك الظالم وكيف يكون .. مما دعا الى قتله بتهمة الزندقة

وكانت ترجمة ألف ليلة وليلة على كل حال مسايرة لترجمة كليلة ودمنة ، ترجمة من نوع خاص لا هى بالحرفية ولا هى بالمعنى فقط . ولكن ترجموا المعانى مصبوغة بالصبغة الاسلامية ، من اعتقاد فى القضاء والقدر ، ومن تقدير للحظ ونحو ذلك

فلما رأى القاص المترجم ما حدث لابن المقفع اتقاه،وبالغ فى الحفاوة بالرشيد .. ليتقى القتل

□

وقد يكون هناك سبب آخر : وهو أن الرشيد لما علم بمترجم الكتاب ، أفاض على المترجم من عطائه . وفهم أن هذه خير دعاية له كما تفعل بعض الهيئات السياسية مع

شراء بعض الجرائد بالمال ، وربما يكون السببان جميعا صحيحين

وربما ترجم جزء آخر من ألف ليلة وليلة فى عهد الخليفة العباسى المعتضد فمدح أيضا ، وخلعت عليه صفات عمر ابن الخطاب والرشيد

أما القسم المؤلف فى مصر فقد وقف موقفا آخر واصطبغ بصبغة أخرى ، ليست موضوع حديثنا هنا .

على كل حال أشادت ألف ليلة وليلة بذكر هارون الرشيد اشادة عظيمة فى علمه وعدله ولهوه وغير ذلك

□

وكان من حسن حظ الرشيد رواج ألف ليلة وليلة رواجا عظيما فى الغرب ووقوفهم على قيمتها ، عكس ما كان ينظر الشرقيون اليها قديما . فقد وصفها ابن النديم بأنها قصص تافهة . ولكن الغربيين رأوا فيها خير ما يمثل الحياة الاجتماعية ، فيما تروى من عقائد ، ومن حوار ، ومن مكر نساء ، ومن لعب شطرنج ، الى غير ذلك . ورأوا أنها تمثل الشرق من جميع نواحيه ، فعنوا بها من نواح مختلفة .. فأولا ، من جهة نشر نصوص الكتاب التى عثروا عليها . وثانيا ، من جهة ترجمتها الى لغات غربية مختلفة

وربما كان أول من ترجمها الى الفرنسية الأديب الفرنسى « جالان » ، ثم ادوارد لين الى الانجليزية، ثم لتمن بالالمانية. وقد راجت هذه الترجمات رواجا منقطع النظير . وكان فى رواجها رواج للرشيد معها. فلما رآها المترجمون قد راجت

وقرأها الكثيرون ، شغفوا بالرحلة الى البيئات التى نشأت فيها ألف ليلة وليلة · ودعاهم ذلك الى تعلم اللغة العربية ووضع كتب فيما شاهدوه على أثر هذه الرحلات

ثم كانت الخطوة الثالثة وهى استغلال هذه الترجمة باستيحائها ، ووضع قصص أحيانا للأطفال ، وأحيانا للكبار ، وأحيانا تمثيلية ، وأحيانا غير تمثيلية وهكذا · وكلها عملت لهارون الرشيد عمل السحر ، مما لم تعمله أية دعاية لأى ملك آخر

الخليفة العباسى

ولم يكن الخليفة العباسى حاكما مدنيا فحسب ، بل هو أيضا حاكم روحى يحاط بهالة من ضروب الشرف والتوقير والاحترام · فلما مات الهادى بويع الرشيد كما تجرى المراسم ، فجلس على سرير الملك · وامتلأت الأبهاء على سعتها بكبار رجال الدولة ومن يسمون عادة أهل الحل والعقد · وبدأت البيعة أولا بالأمراء الذين يتقدمون الى العرش ويقرأون صحيفة البيعة ، وينفذون الايمان التى أخذت عليهم من قبل · وبايع بعدهم الوزراء وأولادهم · ثم أصحاب الشرطة

وبعد أن تم ذلك انعطف أخوة الخليفة والوزراء والاشراف على شكل دائرة بجانبى العرش · ووقف الحاجب بالباب يأخذ البيعة من الناس · وكتب الى أمراء الأمصار ليأخذوا البيعة من كبار الرجال فى دائرتهم · فلما تم ذلك تمت الصبغة القدسية للرشيد ، وتمت له السلطة المدنية

والروحية . وهى حالة لا نستطيع أن ندركهـا فى عصرنا اليوم

▭

فمما فعله الرشيد أن سمى بغداد مدينة السلام تشبيها لها بدار الســـلام ، وسمى قصر الخلافة بالحريم تلميحا الى البيت الحرام . وجلب بعضا من أبناء الأنصـار ، وسماهم بالأنصار . وجعل بابا من أبواب بغـداد قليل الارتفاع ، لكى ينحنى الداخل منه تشبيها بالسجود احتراما للخليفة .. كما يفعل الداخل الى الكعبة. وسمى الخيزران أم الخلفاء تشبيها بما سمى به الرسول عائشة أم المؤمنين

واستكتب العلماء فى وضع الاحاديث التى تمجد بيت بنى العباس كالذى رواه الطبرانى عن ابن عمر. كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نفر من المهاجرين والأنصار ، وعلى بن أبى طالب عن يســاره والعباس عن يمينــه ، فتلاحى العباس ونفر من الأنصارفأغلظ الانصارى للعباس. فأخذ النبى صلى الله عليه وسلم بيدالعباس وبيد على وقال: « ســيخرج من صلب هذا فتى يملأ الأرض جورا وظلما ، وسيخرج من صلب هذا فتى يملأ الأرض قسطا وعدلا . فاذا رأيتم ذلك فعليكم بالفتى التميمى فانه يقبل من قبـل المشرق . وهو صاحب راية المهدى »

ويظهر أن واضع هذا الحديث ماكر زائد فى المكر ، فانه جعل روايته ذات وجهين ، حتى اذا غلب فريق ادعى أنه هو المراد ، لأنه لم يعين المشار اليه فى كل مرة فأخذه دعاة بنى

لعباس وأولوه لهم لأنهم أصحاب الرايات

وأغرب من هذا ما رواه الحاكم عن مجاهد عن ابن عباس، قال : قال مجاهد ، قال لى ابن عباس : « لو لم أسمع أنك من أهل البيت ما حدثتك بهـــذا الحديث » . قال ، فقال مجاهد : « فانه في ستر لا أذكره لمن يكره » . قال ، فقال ابن عباس : « منا أهل البيت أربعة ، منا السفاح ، ومنا المنذر ، ومنا المنصور ، ومنا المهدى » .

قال ، فقال مجـــاهد بين لى هؤلاء الأربعة . فقال ابن عباس : « أما السفاح فربما قتل أنصاره وعفا عن عدوه ، وأما المنذر فانه يعطى المال الكثير ولا يتعاظم فى نفســـه ، ويمسك القليل من حقه ، وأما المنصـــور فانه يعطى النصر على عدوه ويرهب منه عدوه على مسيرة شهر ، وأما المهدى فانه الذى يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا وتأمن البهائم السباع وتلقى الارض أفلاذ كبدها ، قال قلت : « وما أفلاذ كبدها ؟ » قال : «أمثال الاسطوانة من الذهب والفضة» . .

قال الحاكم : هذا حديث صحيح الاسناد . ومنه اسماعيل ابن ابراهيم بن مهاجر وقد خرج له مسلم ، والحـــديث كما يظهر مصنوع حكى بمهارة كما يحكى الحديث الصحيح . وكلها أحاديث وضعت لخدمة البيت العباسى والاشـــاعة بين الناس أنه بيت مؤيد من الله مقدر على العبـــاد ، فلا معنى لمقاومته

يحيى البرمكى

ولما تربع الرشيد على كرسى الخلافة الذى كان متربعا عليا من قبل أخوه الهادى وأبوه المهدى، كان أول ما فعل أن أسند

الوزارة الى يحيى البرمكى اعترافا بجميله ٠٠ فقد كان مربيا له فى صغره ، وكان المدافع عن ولايته للعهد فى شبابه ٠ وكان الرشيد يناديه : يا أبت ، دلالة على حبه والوفاء له ٠ وكان يستشيره فى جميع الأمور ما صغر وما كبر ، ومنحه سلطة مطلقة لتسيير أمور الدولة كما يرى ٠ وكانت وزارته وزارة تفويض٠والوزارة فى الدولةالاسلامية تنقسم الى قسمين وزارة تفويض ووزارة تنفيذ ٠٠ فوزير التفويض يستطيع أن يفعل ما يشاء من غير أن يرجع الى خليفته ، وله الحق أن يولى من يشاء ويعزل من يشاء ، وأما وزير التنفيذ فليس له أن يفعل أمرا ابتداء من عند نفسه، انما يفعل ما يأمر به الخليفة٠وكان ليحيى هذا أبناء أربعة : الفضل ، وجعفر ، وموسى ، ومحمد ٠٠ وكلهم على جانب عظيم من الحنكة السياسية ، وولوا أعمالا عظيمة فى الدولة واشتهر منهم الفضل بن يحيى ، وجعفر بن يحيى

اشتهر الفضل بالكرم الذى لا حد له ، وكان فى ذلك يفوق كل أهل بيته ٠ واشتهر جعفر بالقرب الشديد من الرشيد ، وبالكرم دون كرم الفضل ، وبالبلاغة فوق بلاغة الفضل

وكان الخليفة فى هذا العصر حاكما مستبدا برأيه، يهيمن على كل شئون الدولة ، وفى يده جميع السلطات ويشرف على الرسائل الرسمية ، وعلى تعيين أمراء الأمصار وعزلهم، ووزيره ينوب عنه فى ذلك٠وكانتكل الاعمال التىيتولاها الوزيريتولاها اما برأيه أو منفردا عنه،ولمتكن شئونالدولة مقسمة الى وزارات ٠ كل وزارة لها اختصاص ٠ فان بغداد

لم تعرف هذا النظام، بل كان الوزير وزير كل شيء : وزيرا للمال ، ووزيرا للشئون الاجتماعية ، ووزيرا للاشغال ، الى غير ذلك ، كما كان الخليفة كل شيء ، وانما عرف نظام التخصيص واسناد كل طائفة من الاعمال الى وزير وتعدد الوزراء ، الأندلس لا الشرق .. وهذا ما جعل الوزير فى الشرق واسع السلطان يحمل كل المسئوليات

□

وبجانب الوزير والخليفة كان هناك مجلس استشارى ، يتألف من الوزير وبعض العائلة المالكة . وهذا المجلس يستشار فى المسائل العامة الكبيرة ، كايرادات الدولة ومصروفاتها وتعيين كبار الموظفين وعزلهم . ومن الأسف أن ليس لدينا تفصيل كبير عن عدد أعضاء هذا المجلس ، ولكنا نعلم أنه مجلس استشارى ، للخليفة والوزير أن يأخذا برأيه أو يخالفاه ، لا كما كان نظام الشورى فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين ، ولا كما كان مجلس الشورى فى الأندلس اذ كان له من السلطان ما يستطيع به أن يقضى على الخليفة ويلزمه بحكمه

وبجانب ذلك كان صاحب البريد . وكان ذا شأن عظيم فى الدولة ، فهو بطبيعة عمله يجمع الاخبار من كل قطر بواسطة أتباعه ، ويتجسس بواسطتهم على من بيدهم السلطة . واذا كانت هنالك مؤامرة أو دسيسة أو حض على الثورة أخبر بها الخليفة سريعا . وكانت ادارة البريد منظمة تنظيما دقيقا ، واذا استطاع الخليفة أن يحجب كل

انسان فلا يصح له أن يحجب صاحب البريد .. لأن تأخير ساعة واحدة ليلا أو نهارا قد يجعل الأمر الخفيف مستفحلا، ويجعل ما كان يتغلب عليه باليسير لا يتغلب عليه بالكثير، وكان من شأن صاحب البريد التجسس في الداخل وفي الخارج جميعا ، ومن المتجسسين رجال ونساء ، ومنهم تجار متخفون وغير تجار ، مما يشبه ما عليه الأمم الغربية في هذا العصر

توزيع الأمراء

وهناك أمير على كل قطر ينوب عن الخليفة ، يضرب الضرائب ، ويحصل الأموال ، ويصرف مما تحصل على الاصلاحات العامة ، وما بقي منها يرسله الى الخليفة في بغداد . وقد بلغ ما دخل خزانة الخليفة كل سنة في عهد الرشيد حوالى ٤١١ مليون دينار ، وكانت الامارات في عهد الرشيد تتألف من الجزيرة وأذربيجان . وأرمينيا . ومكة والمدينة ، واليمامة ، واليمن ، والكوفة ، والبصرة ، والبحرين، والسواد ، وعمان ، وعراق العجم ، وخراسان، وما وراء النهر ، والبنجاب ، والسند ، والأهواز ، وجنوبي فارس ، والموصل ، والشام ، ومصر . وعلى كل امارة من هذه الامارات أمير يتولى أمورها . وهو مسئول عن شئونها المادية والروحية أمام الخليفة . واذا حصلت ثورة أخبر الخليفة ، وكان عليه أن يخمدها

وبجانب ذلك أيضا كان أستاذ الدار - أو كما يقال مختصرا الاستاذ - أو كما يسمى اليوم ناظر القصر . وهو

يقوم بكل شأن من شئون الدار ومراعاة زواره وما يأمر به الخليفة من تنظيم حفلات ،كما يقوم على طعام الخليفة وشرابه وطعام حاشيته وشرابها الى غير ذلك ..

ثم كان ديوان الرسائل يتــولى تدوين توقيعات الخليفة واعداد المراسيم ، وما يصدر عن الخليفة وما يرد اليه

وكان بكل مدينة شرطة يحملونألقابا عسكرية خاصة..

ثم كان المحتسب الذى يشرف عـــلى كثير مــن الشئون الاجتماعية ، فيؤدب السكير والمطفف فى الكيل والميزان ، ومن احترف حرفة ليس أهلا لها . ويستوثق من صلاحية السلع التى تباع وعدم بهرجة النساء ونحو ذلك

أبهة الدولة

في عصر هرون الرشيد



احيط الرشيد بأبهـة الدولة ومباهجها مما أخذته الدولة العباسية عن الفرس ، ذلك ان مجالس الخلفـاء الراشدين كانت ساذجة بسيطة فى المسجد أو فى المنزل يقعدون على حصير أو جلد ، ويلتفون بعباءة او نحـوها ولا حرس ولا حجاب . واذا بعثوا قائدا مشى الخليفة فى وداعه بلا حرس ولا طبول . ولم تكن هناك حجابة ولا حجاب ، بل كان من اراد الاستئذان على الخليفة يقف على الباب ويقول : «السلام عليكم .. أدخل ؟ » يكررها ثلاثا ، فان قيل له « أدخل » دخل ، وان لم يجب لم يدخل . ثم اضطر الخلفاء الراشدون انفسهم للحجاب للازدحام . فلما فتحوا الفتوح من اقطار كان يحكمها الرومانيون وأقطار كان يحكمها الفرس ، قلدهم الأمراء والخلفاء فى مظاهر الأبهة واتخاذ الحجاب

وقد بدأ ذلك معاوية بن ابى سفيان فى دمشق . وأشاروا عليه بضروب من الفخفخة . فرتبوا الناس مراتب فى الدخول على الخليفة أو الامير . يؤذن أولا للأشراف نسبا فاذا تساووا فى النسب قدموا أكبرهم سنا . فاذا تساووا فى السن قدموا أكثرهم أدبا . وقلد الأمويون ملوك الروم . وقلد العباسيون أكاسرة الفرس فى مجالسهم ومظاهر أبهتهم

ابهة واستبداد

فلما جلس الرشيد كانوا ينصبون له فى الساحة الكبيرة فى القصر سريرا وكراسى ، ويفترشون له الطنافس والمصليات والوسائد تطوى طيتين ، وكانت الستور تقام لتحجب الخليفة اذا أراد ، وتزاح اذا اراد . ثم عينوا الحجاب على الأبواب

ليمنعوا الدخول على الخليفة الا باذن . فاذا أذن الخليفة أو الأمير لأحد تقدم بالسلام . وربما اضافوا اليها السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته . وربما قبلوا يد الخليفة عند التحية اذا أحس القادم رغبة من الخليفة فى ذلك . فلما ازدادوا عظمة ترفعوا عن مد يدهم للداخلين

وفى عهد العباسيين اخترعت بدعة تقبيل اليد أو الكم . فاذا استعظموا قائدا منعوه من تقبيل يدهم أو كمهم . ثم يجلسون فى مجلس الخليفة حسب مرتبتهم ، يتولى اجلاسهم فى مجالسهم الحاجب . وهذه تختلف باختلاف الدول . . فكان الأمويون فى عهد بنى أمية يجلسون الأمويين اقرب مجلس للخليفة . أما العباسيون فكانوا يجلسون بنى هاشم أقرب مجلس اليهم ؛ لأنهم انفسهم من بنى هاشم . واذا أجلسوا بنى هاشم أجلسوهم على الكراسى ، وأقعدوا بنى أمية أعداءهم على الوسائد . . وقلما كان يكون ذلك . وقد منع الخلفاء العباسيون الكلام ومخاطبة الزائرين بعضهم لبعض فى مجلس الخليفة . ولا ينهض أحد لداخل الا اذا نهض الخليفة . ثم هم لا يبدأون الخليفة بكلام الا أن يبدأ ، فاذا لم يكلمه ظل ساكتا

□

ولم يشذ عن ذلك الا المأمون لرغبته فى سماع الجدل والمناظرة ، وغلبة ذلك عليه اكثر مما يميل الى التقاليد المرعية . وربما قلده فيه غيره من بعض الخلفاء الذين أتوا بعده ، ومنعوا أن يؤمر احد فى حضرة الخليفة بأمر ليكون هو الآمر

وحده . وطلبوا الى الداخل ان يصغى بكل جوارحه الى الخليفة ، وينتبه كل انتباهاته الى ايماءات الخليفة واشاراته . ومنعوا أن يعزى الخليفة وان يسأل كيف أصبح وكيف أمسى ، وانما يجوز ذلك لطبيبه الخاص . وبالغوا فى الحجاب . وكان لكل خليفة كلمة او اشارة يقولها عند الاذن من حضرته بالانصراف . فكان السفاح مثلا يتثاءب ويلقى المروحة من يده . وكان المأمون يعقد الاصبع الوسطى بابهامه . وكان من انصرف يوجه وجهه نحو الخليفة حتى يصل الى الباب بظهره ثم ينصرف . وكان على باب قصر الخلد فى عهد الرشيد مكان يجتمع فيه الوفود من شعراء ومغنين ومضحكين ، لعله يخطر ببال الخليفة طلب نوع منهم ، وتكون له الحظوة . وشجع على ذلك كثرة ما كان يعطيه للوافدين ، او مما يعرضه تجار الجاريات والسلع . وكثيرا ما تصطدم عطاءاته برغبة الوزير ، كالذى حكى أنه أمر مرة بشراء جارية مغنية بآلاف من الدراهم ، فاستكثرها يحيى البرمكى . فأحضر المبلغ وكومه فى مكان يطلع عليه الرشيد فى ذهابه الى الوضوء وجيئته . فلما رأى الرشيد المبلغ استكثره . ومع ذلك صمم على تنفيذه ارادته . وانتقد يحيى البرمكى فى سره حتى قالوا ان هذه الحادثة أيضا من أسباب نكبتهم ...

▭

ولقد كان المظهر مظهر ابهة وفخفخة واستبداد وتقاليد دقيقة ، فى الجلوس والحديث والانصراف مما ورثوه عن الأكاسرة من قبل ولا يعرفها الاسلام . وهذه كلها خلعت

قلوب الناس واماتت روحهم . . وجعلتهم كانهم احجار شطرنج مفقودة الارادة . كما ان هذه السلطة الواسعة للخليفة ، مكنت للرشيد ان يتصرف فى الناس تصرف الحاكم المستبد المطلق الحرية . ولولا ذلك ما أمكنه أن يقبل مثلا كل الاقبال على البرامكة ، فتكون لهم السلطة المطلقة . . ثم ينقلب عليهم وينكل بهم ويصادر أموالهم ومن يلوذ بهم

فالنظام السائد اذ ذاك كان نظاما منسجمايناسب بعضه بعضا . ففى حكم الرشيد مثلا ، استبداد لا الى حد احيانا وسماحة لا الى حد ، ولا يدرى من يطلبه الخليفة أذاهب هو الى القبر ام راجع بآلاف الدنانير ، اذ لا قوانين ولا اتهام ولا دفاع للمتهم عن نفسه ولا عمل بقانون شرعى أو قانون وضعى . فرقاب الناس كلهم معلقة بفم الخليفة . . قد يأمر بالسعد كله ، وقد يأمر بالشقاء كله . وكل الأمور من معاملة الولاة للرعية والرعية للوالى ، وعلاقات الناس بعضهم ببعض تتشابه . وقديما قالوا « الناس على دين ملوكهم »

ومع هذا فيجب أن ننظر للرشيد على انه حاكم شرقى مستبد له كل مزايا الحاكم المستبد من اغناء من شاء واسعاد من شاء ، وسرعة التنفيذ فيما يرى ، والخضوع والطاعة من غير تعب . وفيه رزايا الحاكم المستبد من سفك دماء من شاء وسلب الناس حقوقهم وحرياتهم . وخضوع الناس للهوى الذى لا يعرف اين يتجه ، لا لقانون معروف ونحو ذلك

ميزانية الدولة

وقد عثر على ميزانيـة للدولة العباسـية من ايرادات

ونفقات ، شأن الميزانيات فى هذا العهد ، وان كانت الميزانية التى عثرنا عليها ميزانية لعصر بعد عهد الرشيد بقليل. نكتفى ببعضها ، فمنها :

١٠٠٠ دينار فى اليـوم ارزاق اصحـاب النوبة من بوابين ومماليك

١٥٠٠ دينار فى اليوم ارزاق الفرسان

٦٠٠ « « ارزاق المختارين من الجند

٣٢٢ « « نفقات المطابخ الخاصة والمخابز

٤ « « ارزاق السقايين بالقرب فى القصر

١٠٠ « « ارزاق الحشم من المستخدمين لخزائن الكسوة والصناع والرفائين والمطربين

٤٤ دينارا فى اليـوم أرزاق الجلساء واكابر الملهين ومن يجرى مجراهم

٤٠٠ دينار فى اليوم ثمن علوفة للخيول فى الاصطبلات

٢٠ « « ارزاق مشايخ بنى هاشم والخطباء فى المساجد

٣٢ دينار في اليوم ارزاق لبنى هاشـم من العباسـيين والطالبيين

٤ دينار فى اليوم ثمن النفط للنفاطات والمشـاعل ومن يخدمها

٥٠ دينار فى اليوم نفقات السجون

١٥ « « نفقات البيمارستانات الخ

وقد جمعت النفقات كلها فكانت جملتها ٦٩٧٤ دينارا فى اليوم . أما الدخل فكان من الصدقة والزكاة والجزية والخراج والمكوس واعشـار السفن واخماس المعـادن والمراصـد

« الجمارك » وغلات ضرب النقود وضرائب الصناعة الخ ...
وكان فضل خليفة على خليفة وعهد على عهد فى الموازنة بين الدخل والخرج . اما اذا اختلت الميزانية فقد اختلت شئون الدولة ، ويكون ذلك من قلة الدخل مع كثرة الخرج ، أو من كثرة الدخل مع قلة الخرج وضياع المصالح

□

وكانت مراسيم التعيين فى غاية من الروعة والبهاء ، فكان من يستوزر يأتى الى القصر بعد أن يصله الكتاب الرسمى ، يحمله اليه أميران من أمراء الدولة وعند خروجه الى باب الخليفة يقدمه الحاجب اليه ، فيتحدث اليه قليلا ثم يذهب اليه قليلا ثم يذهب الى حجرة أخرى ، فيلبس لباس التشريف ثم يعود فيقبل يد الخليفة وينصرف الى الديوان ممتطيا فرسا مطهمة ، وبين يديه كبار الموظفين والجيش والأمراء وموظفو البلاط ، وعندما يصل الى ديوانه يقرأ عليهم مرسوم التعيين

مجلس الخليفة

وكان مجلس الخليفة - ويسمى مجلس العزيز - يقابل الباب العالى فى الدولة العثمانية . وكان من أهم الدواوين ديوان الخراج ، وديوان الضياع السلطانية أو كما نسميه اليوم ديوان الخاصة الملكية ، وديوان الزمام وهو ما يقابل اليوم مراقبة الحسابات ، وديوان الجند ، وديوان الموالى والغلمان ، وديوان البريد ، وديوان زمام النفقات ، وديوان التوقيع ، وديوان الأحداث والشرطة ، وديوان العطاء ،

وديوان المظالم وهو ديوان أعلى من المناصب القضائية لأنه كان ينظر فى المظالم التى يتهم فيها الملوك او الخلفاء أو الأمراء أو الولاة على العهد ، أو أولاد الخلفاء أو نحــو ذلك ، ممن لا يستطيع القاضى العادى أن ينفذ فيهم كلمته . فكان هذا الديوان يسمع الشكاوى من هؤلاء الخاصــة . ويستطيع بواسطة رياسة الخليفة ان ينفذ كلمته

وقد كان الرشيد ـ ومن بعده المأمون ـ يراسان هــذه المجــالس . وكانوا يفردون يوما خاصــا للنظــر فى اقوال المتظلمين ، ويقولون ان أول من فعل ذلك عبد الملك بن مروان فى الدولة الأموية ، ثم عمر بن عبد العزيز . ثم وقف العمل الى ان استقرت الدولة العباسية ، ورأسه المهــدى ، ثم الهادى ، ثم الرشيد ثم المأمون

واستمر العمل به الى زمن المهتدى بالله ، ثم عهد الخلفاء النظر فى المظالم الى قاضى القضاة او الى بعض عظماء الدولة. وكان يعرف أن المأمون كان يجلس للمظــالم يوم الأحد من كل أسبوع . ولسنا نعلم اى يوم كان يجلس الرشيد فيه للقضاء فى هذه المظالم

دار الضرب

وكانت هناك دار تسمى دار الضرب ، تضرب فيها النقود . . أنشئت فى بغداد ، والقاهرة ، ودمشق ، والبصرة . وكان على دور الضرب هذه ضريبة على ما يضرب فيها من النقود ، مقدارها درهم عن كل مائة درهم ، وربما اختلفت الضريبة باختلاف المدن . وتجمع من ذلك دخل كبير للدولة . اما مقدار ما كان يضرب فلم نعرفه بالضبط . غير أننا رأينــا

بعض المؤرخين يقول ان دار الضرب فى الأندلس على عهد بنى مروان ، كانت تضرب مائتى الف دينار فى السنة

وكانت صناعة الضرب هذه صناعة ساذجة بدائية .. قالب من حديد تنقش فيه الكلمات التى يراد ضربها على النقود مقلوبة . يسيحون الذهب والفضة بمقدار ، ويصبونها فى هذه القوالب . ويطرقونها بمطرقة ثقيلة ، ويسمون هذه الحديدة « السكة » . وهناك عمال كثيرون فى هذه الدار .. من وازن وضارب ونحو ذلك

القضاء

ولكل ديوان اختصاصاته بعضها ادارى وبعضها قضائى كديوان القضايا ؛ وكان على جانب عظيم من الأهمية . وكانت كل القضايا لغير المسلمين توكل الى رؤساء دياناتهم . اما المسلمون فكان يفصل بينهم القضاء . وكان فى كل حاضرة قاض يتبعه قضاة فى النواحى التابعة للمدينة . وكان قاضى بغداد يسمى قاضى القضاة ، وهو فى الواقع رئيس قضاة المملكة الاسلامية كلها . أما القضايا الخاصة بين الناس ؛ فتعهد الى صاحب ديوان المظالم كما ذكرنا ، وأحيانا يراس الجلسة الخليفة نفسه ، وينوب عنه فى غيابه أحد كبار الموظفين : وأعضاؤها قاضى القضاة ؛ والحاجب ، وكبار رؤساء الدواوين ، وكان من العادة المألوفة الا تقبل شهادة كل شاهد ، وانما يختار جماعة من حسنى السيرة او على الأقل مستورى الحالة يسمون عادة بالعدول . ولا تقبل الشهادة الا منهم ، فمن أراد ان يثبت حادثة حدثت تحرى ان تؤدى

امامهم ، وكانت على العموم محاكم بدائيـــة لم تنظم تنظيما تاما الا فى عهد نور الدين محمود زنكى

الزراعة والصناعة

وعنى فى عهد الخلفاء العباسيين بالزراعة وخاصة فى الولاية التى بين دجلة والفرات ، فامتدت شبكة من القنـــوات فى الترعة لا تزال آثارها المطمورة باقيـــة الى اليوم ، والترع الكبيرة تمخر فيها السفن الكبيرة . هـــذا القسم الذى بين دجلة والفرات هو الذى يسمى سواد العراق لكثرة خصبه . وعنوا عناية كبيرة بفحص المواد المعدنية واستخراج الحديد والرصاص والفضة من فارس وخراسان ، كما استخرجوا الزمرد من تبريز ، والملح والكبريت من شمالى فارس ، والقير والنفط من كورجيا ، ومن ثم أنشأوا ادارة للمناجم وولوا عليها مديرين أكفاء

كما كانوا يشجعون الصناعات كصنع الصابون والزجاج ، وشيدت لهما مصانع فى بغداد وسامرا ، واشـــتهرت مصر وسمرقند وبغداد بصنع الورق ، وأتى الى بغداد بطائفة من مهرة هذه الصناعة واسست مصانع للتطريز ، وتفوقوا فى صناعة الحرير والأطلس والأنسجة الحريرية والسجاجيـــة الفاخرة ، وقد اشتهرت الكوفة بكوفياتها الحريرية وغيرها . واشتهرت صناعة العباءات النفيسة من حرير الخز . وعلى الجملة اشتهرت كل مدينة بصناعة ، وعلقت المصابيح البلورية فى المساجد ومساكن الأغنياء ، وكانت مزدانة بالنقوش الجملة والآيات القرآنية او الأحاديث النبوية ، وكانت تصنع هـــذه المصابيح على اشكال مختلفة وتباع اما للاستعمال أو للزينة ،

وقد بقيت منها بقية اثرية الى اليوم . ويصف لنا بشار الأعمى كأسا عليها صورة كسرى بقلنسوته ، ورسم حد للخمر الصرف ورسم حد آخر للماء الممزوج به

ازدهار التجارة

وازدهرت التجارة فى عهد هرون الرشيد . وكانت اول الأمر فى يد اليهود والنصارى ، ثم انتقلت الى المسلمين ، وقد كثرت أسواقها ، واتسعت مناحيها حتى وصلت الى الصين . وهم يتجرون فى الحرير والأحجار الكريمة ، والأقمشة المزخرفة والزجاج الملون ونحو ذلك

وكانوا ينقلون بضائعهم على قوافل متعددة تسلم كل قافلة ما بعدها كمراحل البريد

وقد هم الرشيد بحفر قناة السويس قبل ديلسبس بألف عام . وامتدت تجارتهم شرقا الى اندونيسيا ، وغربا الى مراكش واسبانيا . ويدل على ازدها التجارة فى عهد الرشيد وخلفائه كثرة الدخل الذى كان يجبى من الأقطار الاسلامية

الجيش

واشتهرت الدولة العباسية بمهندسين يشيدون العمارات الفخمة ، وبعضهم اختص ببناء الحصون وبعضهم الف الكتب فى الهندسة الحربية كالتعبئة وطرق الاستيلاء على الحصون وتشييد القلاع والفروسية والحصار وصفات الخيول وأنواع الخيالة . وكان النظام السائد هو نظام الاقطاع وهو جمع

قطيعة ، وسميت أماكن كثيرة بقطيعة فلان . وكان مرتب الجندى مائة درهم شهريا — وزيد بعد ذلك فى العصر العباسى — وهذا للجندى الراجل اما الفارس فكان مرتبه ضعف ذلك ، عدا ما يمنحه الخليفة للجنود فى المناسبات المختلفة

واشتهر نظام فى الجيش يسمى نظام الموالى ، فكان لكل خليفة جيش ينتمى اليه ، وكان من مقتضى هذا النظام تعلق الجنود بمولاهم والاعتزاز به والتحصن به

وكان هناك ديوان يسمى ديوان العرض ملحقا بديوان الحرب ، من وظيفته استعراض الجند ومعرفة كفايتهم . ولذلك نجد أناسا كثيرين يلقبون بالعارض ، وكان لكل مرفق من مرافق الدولة مفتش يسمى بالمشرف ، وكان مفتش الرى والزراعة يسمى مفتش الأقرحة ، ومن وظيفة هؤلاء المفتشين التفتيش ، كل فى دائرة اختصاصه ورفع التقارير عنها الى الخليفة



النظام الاجتماعي
في عهد هرون الرشيد



التقاليد الفارسية

انقلب النظــام الاجتماعى الأموى فى العصر العباسى رأسا على عقب . فبعد أن كانت الدولة الأموية تقيم نظامها على العنصر العربى والدم العربى ، أصبحت الدولة العباســية تقيم أساسها على الدم الفارسى والتقاليد الفارسية ولذلك قال الشاعر :

ان أولاد السرارى كثروا يا رب فينا
رب أدخلنى بلادا لا أرى فيها هجينا

وكان الخلاف بين الأمين والمأمون فى الحقيقــة خلافا بين عنصرين ، عنصر العرب وعلى رأســه هرثمــة بن أعين ، وعنصر الفرس وعلى رأسه طاهر بن الحسين ، ولكن مهما اختلف العنصران فقــد تمازجا ، وتزوج العــرب بالفرس والفرس بالعرب ، ونشأت حركة عنيفــة تســمى حركة الشعوبية تنادى بتساوى الأجناس ، وساعد على ذلك كثرة السرارى والاماء اللاتى كن يملأن البيوت ؛ فكان كل رجل يتزوج بحرة أو حرتين الى أربع وتحت يده من شــاء من الجوارى بملك اليمين ، وهؤلاء الجوارى كن أكثر حرية بفضل تعرضهن للبيع والشراء والانتقــال من يد الى يد ، عكس الحرائر وذلك عكس المظنون ، فقــد كان المظنون أن تكون الحرائر أكثر حرية . كما ساعد على ذلك أيضا كثرة العلماء من الموالى ونفورهم من سيادة العرب عليهم

تعدد الزوجات

ولــكن مع الأسف كان تعدد الزوجات وكثرة الجوارى

سببا فى انحلال البيوت ، فقد كان هذا النظام محمودا يوم كان مرتبطا بالجهاد مما أدى الى كثرة النساء دون الرجال ، واقتضى ذلك اختصاص عدد من النساءِ برجل واحد ، ولكن لما قل الجهاد أو بطل علي توالى الزمان وظل التشريع كما هو نتج عن ذلك انحلال الأسر

فطبيعى أن البيت الواحد اذا كان فيه حرائر متعددات وملك يمين متعددات ، كثر الخلاف بين الحرائر بعضهن وبعض أو بين الحرائر والاماء ، وبين الأولاد لتعدد أمهاتهم خصوصا وأن من طبيعة الرجل أن يفضل بعضهن على بعض ؛ اما لجمالهن أو لأخلاقهن أو لغير ذلك . فاذا فضل بعضهن دبت الغيرة فى الباقيات وكثرت الشحناء والدسائس والمؤامراتِ

وعلى الجملة انحل البيت ، وقع بين الاخوة من أمهات مختلفة فى العادة أشد أنواع العداء . وفى التاريخ حوادث كثيرة من هذا القبيل كالذى حدث بين الأمين والمأمون ، فالأمين أمه حرة عربية والمأمون أمه جارية فارسية . ويعلل ابن خلدون انحلال البيت بكثرة الترف ، ولكن لم يكن الترف حظ كل المسلمين ولا أغلبهم .. انما هو حظ الخلفاء والأمراء وكبار التجار وأضرابهم ، أما سائر الشعب ففقراء

يضاف الى ذلك أن الرجال ــ وقد قعدوا عن الجهاد ــ اتسع وقتهم ، فتفرغوا للشهوات . والافراط فى الشهوات يضعف الهمة ويقصر العمر ، ولذلك كان متوسط أعمار الخلفاء

قصيراً بالنسبة لمن عداهم . وكذلك اذا فضل الرجل احدى زوجاته فضل اولادها ايضا ، فكرهه الآخرون كما فى قصة يوسف واخوته

واذا شعر الابن بأنه ابن جارية تباع فى الأسواق ، كان عنده مركب النقص بالنسبة لولد الحرة .. كالذى كان بين الأمين والمأمون ، وكلما كان الخليفة اغنى واترف كانت الجوارى عنده أكثر عددا ، وكان النزاع فى البيت أشد وفسد الأولاد من رؤيتهم أمام أعينهم عددا كثيراً من الشابات الجوارى فى القصر الذى يعيشون فيه

وكان الغرام ، وتبادل النظرات الى غير ذلك كالذى يحدثنا به ابن حزم فى كتابه طوق الحمامة ، ولولا لطف الله وتغلب الاسلام عليه ؛ لانهارت أخلاقه كما انهارت أخلاق كثير من الناس . وكما حكى أن المأمون كان يغازل جارية بعينه وهى تصب الماء على يد ابيه ، فلاحظ ذلك الرشيد واستنكر فعلته . واذا كانت الأمة مؤلفة من أسر متعددة متنافرة فانها تنحل بانحلال هذه الأسر

□

وشىء آخر هام وهو ان البيت اذا فسدت اخلاقه ، بما فيه من تفضيل بعض على بعض وحسد وغيرة ومنافسة وعداء بين الأولاد وعداء بين الأمهات . أصبح هؤلاء الأمهات غير قادرات على تربية الأولاد تربية صحيحة . وخرجوا الى الأمة ضعاف العقول ضعاف الاخلاق كثيرى الدسائس والمؤامرات ضعيفى الهمة ، والقارىء لكتاب الأغانى عن بيت

ابن رامين ، الذى يقول الشاعر فيه :

هل من شفاء لقلب لج محزون صب يغيب الى ريم ابن رامين
الى ربيعة ان الله فضلها بحسنها وسماع ذى افانين
وهاج قلبى منها مضحك حسن ولثغة بعد رائى وفى سين
انت الطبيب لداء قد تلبس بى من الجوى فانفثى فى وارقينى
يا رب ان ابن رامين له بقر عين ؛ وليس لناغير البراذين
لو شئت اعطيته مالا على قدر يرضى به منك عين الربرب العين
نمشى وارجلنا مطوية شللا مشى الأوز التى تأتى من الصين
او مشى عميان عم لادليل لهم سوى العصى الى يوم الشعانين
لولاك تؤنسنى بالقرب مابقيت نفسى اليك ولو مثلت من طين

ولما حج ابن رامين وحج بجواريه معه حزن أهل بغداد عليه وعلى جواريه وقال قائلهم :

حججت بيت الله تبغى به البر ولم ترث لمحزون
يا راعى الذود لقد رعتهم ويلك من روع المحبين

السفور والحجاب

والقارىء لكتاب الأغانى ، يرى الحجاب فى ذلك العهد لم يكن له شأن يذكر ، فالمرأة تقابل الرجال وتجالسهم وتسمر معهم كما راينا فى الخيزران وزبيدة . بل قد تقود الجنود للقتال كأخت طريف ابن الوليد . وبكثرة الجوارى وشعر بشار وابى نواس وامثالهما كثر التهتك ووجدت بيوت القيان . وكان الفتيان يغشون هذه الأماكن ، وانت تقرأ وصفها فاذا هى اشبه بالكباريهات فى هذا العصر ، واشتهرت المرأة كما يصورها كتاب الف ليلة وليلة بالمكر والدسيسة

وتدبير المؤامرات ، حتى شاع فى هذا الوقت « دفن البنات من المكرمات »

وكانت المراة وخصوصا الحرة تجيد الغزل والحياكة لكثرة قرارها ، ومع هــذا فقد ظلت المراة سافرة ، وانما دخل الحجاب على النساء تقليدا للفرس بالتدريج ، فبدا فى عهــد الوليد الثانى الأموى لأن اخلاقه وطباعه واستهتاره جعــل الناس يحتاطون من الاعتداء عليهن ، فأنشئت الأسوار فى القصور والحراس لضمان حماية الحرائر

□

ولكن المراة على الرغم من ذلك كانت تتمتع بقسط كبير من الحرية والسفور . وكان الرجال ينتسبون الى النساء كأبى سلمى وأبى ليلى وكانوا فى الحروب يذكرون نساءهم وحبيباتهم وكان الفتيات المثقفات يجالسن الرجال ويناقشنهم ويستقبلن الأضياف كالذى حكى فى كتاب « اعتلال القلوب » أن رجلا حج فلما عاد عطش فى الطريق فراى خباء فى ناحية منــه فأناخ بفنــائه . قال فقلت : « أأنزل » ، فقالت ربة البيت : « نعم » فقلت : « وأدخل ؟ » فقالت : « أجل » ، قال : « فدخلت فاذا جارية احسن من الشمع ، فجلست احدثها وكأن الدر ينتثر من فيهــا ، فبينمــا انا كذلك اذ دخلت عجوز مؤتزرة بعبــاءة مشتملة بأخرى ، فقــالت : « يا عبد الله ما جلوسك ها هنا عند هذا الغزال النجدى الذى لا تأمن جماله ولا ترجو نواله » . . فقالت لها الجارية : « أى جدة ، دعيه يتعلل » فكانت الحرة اذن تقابل وتتحدث

وتضيف وتتعفف كالذى يقول الشريف الرضى :

عفافى من دون التقية زاجر وصوتك من دون الرقيب رقيب

ثم كثرت الجوارى وكثر التهتك ، فازداد الحجاب على مر الزمان حتى كثف واصبح لا يسمح فيه الا بعين تنظر الطريق . وكان لبس المرأة غطاء على الرأس اخترعته علية بنت المهدى اخت هرون الرشيد ، له اطار من تحته قابل للترصيع بالأحجار الثمينة . وكان النساء يتحلين بالخلاخيل والأساور والأقراط والخواتيم . والرجل يلبس قلنسوة قد اخترعها المنصور. اما لباس الجسم فسروال وقميص وقفطان تشملها عباءة . والفقهاء كانوا يلبسون عمامة على الرأس وطيلسانا ، وقد اخترع هذا الامام أبو يوسف واختاره لبسا للقضاة

الجمال

وكان للجمال فى أيامهم مثل أعلى هو استدارة الوجه مع حمرته . وشاع فى أيامهم كلمة « الحسن احمر » ويزيد الخد حسنا الخال فيه ، وشبهوه بنقطة عنبر فى صحن . ويحبون من العين ما كانت واسعة كعيون المها متكسرة الجفون متكحلة بالكحل الطبيعى لا الصناعى . وشبهوا الأسنان باللؤلؤ أو بالبرد ، والنهدين برمانتين ، والخصر بالقضيب ، والردف بالكثيب ، والقد بالخيزران ؛ وهم يعنون فى بيوتهم بديوان للجلوس ، وشيت جدرانه بالسجاجيد الأعجمية وصفت حوله الكراسى ، وخيرها الكراسى ذات المسندين ويسمونها الكراسى المجنحة ، وقد فرشت أرضية الغرفة بالطنافس

والطراريج يتربع الجالس عليها . والأطباق فى بيوت الأغنياء قد صنعت من الفضة وصففت الموائد من الخشب المطعم بالأبنوس واللؤلؤ وأنواع الصدف كالذى تراه فى مصنوعات القاهرة ودمشق . وطعامهم السكباج وهو مرق يصنع من اللحم والخل والماء او من الفراخ او نحوها ، والفالوذج وقد بشر ابو حنيفة صاحبه ابا يوسف بأنه سيأكل الفالوذج بدهن الفستق

مظاهر الترف

ومن بدعهم انهم لترفهم كانوا يؤكلون الدجاج الجوز واللوز ويسقونه الحليب . ويتفننون فى الأطعمة وقد وصف ابن الرومى وصفا بديعا مائدة متعددة الألوان فقال :

جاءوا بفرنى (١) لهم ملبون ... قد بات يسقى خالص السمون
مصومع أكرم ذى غضون ... قد حشيت بالسكر المطحون
ولونوا ما شئت من تلوين ... من بارد الطعام والسخين
ومن شراثيف ومن تردين ... ومن هلام ومصيص جون (٢)
ومن أوز فائق سمين ... ومن دجاج فت بالعجين
والشحم فى الظهور والبطون ... وأتبعوا ذلك بالجوزين

وقال بعضهم : «دعيت الى بيت «أحد المغنين» فجئته ، فأدخلنى بيتا نظيفا فيه فرش نظيف ، ثم دعا لمائدة عليها خبز

---

(١) الفرنى خبز جوانبه مضمومة الى وسطه يشوى ثم يروى سمنا ولبنا وسكرا ، وهو ما نسميه اليوم بالفطير

(٢) الشراثيف أطراف الاضلاع المشرفة على البطن ، والتردين نوع من اطعمة الاكراد ، والهلام طعام من لحم عجل ، والمصيص لحم ينقع فى الخل بعد نضجه ، والجون المائلة الى السواد

وخل وبقل وملح ، وجدى مشوى ، فأكلنا منــه . ثم دعا بسمك مشوى فأصبنا منه حتى اكتفينا ، ثم دعا بحلواء فأصبنا منها وغسلنا أيدينا وجاءونا بفاكهة وريحان وألوان من الأنبـذة ، وقال اختر ما يصــلح لك منــه فاخترت وشربت » !

وفى وصف مجلس للشراب يقول الشاعر :

اسقنى واسـق خليلى	فى مدى الليــل الطويل
لونهــا أصــفر صــاف	وهى كالمسـك الفتيـل
فى لســان المرء منهــا	مثـل طعم الزنجبيـل
ريحهــا ينفح منهــا	ساطعا من رأس ميـل
من ينـل منهــا ثلاثا	ينس منهــاج السـبيل
فمتى ما نال خمســا	تركتـــه كالقتيـــل
ليس يدرى حين ذاكم	ما دبير من قبيــــل
ان سمعى عن كلام اللا	ئمى فيهــا الثقيــل
لشـــديد الوقر انى	غير مطواع ذليــــل
انت دعها وارج أخرى	من رحيق السلسبيـل
تعطش اليــوم وتسقى	فى غد نعت الطــلول

▭

وكانت المنــازل فى الصيف تبرد بالثلج او بخيش مبلل بالماء عليه من يشده ويرطبه لتكون منه مراوح . ويتعاطون الماء مذابا فيــه السكر بعد أن يعطر بماء البنفسج أو سائر الزهور . ويتعاطى الناس الشراب ألوانا ، فأحيانا من نبيذ التمر وأحيانا من عصير العنب . وقد ألف ابن قتيبة بعد

تلك العصر كتابا فى انواع الشراب وما قيل فيـــه وكيفية صنعه . ولم يقل أحد فى الخمر ما قاله شعراء هـــذا العصر كأبي نواس وابن سيابه

واتخذ المترفون الندمان واشترطوا فيهم شروطا دقيقة من خفــة الروح ، وحسن الحديث ، وحفظ السر ، وقوة المروءة ، والمبالغة فى السماع . وكانت عادة فارسية نقلوها فيما نقلوا الى العباسيين . وكان للرشـــيد مجالس عامرة . وصاحب البيت اذ ذاك يعطر لحى ضيوفه بالمســك أو ماء الورد ، وكانوا يعطرون مجالس الشراب برائحة العنبر أوالمسك

الألعاب الرياضية

وانتشرت الألعاب الرياضية والصيد ، وكثيرا ما وصفه الشعراء وجعلوا من شعرهم بابا يســـمى الطرد كما فعل أبو نواس . وعنوا بحيوانات الصيد وطيوره حتى جعلوه علما سموه البيزرة ، وانتشرت فى أيام الرشيد لعبة الشطرنج والنرد ، كما انتشر لعب الصولجان واللعب بالسيف والترس وسباق الخيل

وقد وصف المسعودى يوما للرشيد كان فيه سباق للخيل أمامه ، وجلس هو فى صدر الميدان يشرف على السباق . وانقسم الناس الى طبقات لا تتعدى احداها الأخرى ، وكان ذلك تقليدا للفرس فى تقسيمهم الشعب الى طبقات . فالخليفة على رأس الطبقات ، ويليه كبار الموظفين من وزراء وأمثالهم ، ثم البيت الهاشمى ، ثم جند الدولة والحرس . وكثرت الأعياد فى الدولة العباسية ، تقليدا فى بعضها للفرس كالنيروز وفى

بعضها للنصارى كيوم الشعانين . أما حياة البؤساء الفقراء فى مأكلهم ، فعبر عنها خير تعبير ابو العتاهية فى قوله :

رغيف خبز يابس تأكله فى زاويه
وكوز ماء بارد تشربه من صافيه
وغرفة ضيقة نفسك فيها خاليه
أو مسجد بمعزل عن الورى فى ناحيه
تدرس فيه دفترا مستندا لساريه
معتبرا بمن مضى من القرون الخاليه
خير من الساعات فى فىء القصور العاليه
فهذه وصيتى مخبرة بحاليه
طوبى لمن يسمعها تلك لعمرى كافيه
فاسمع لنصح مشفق يدعى أبا العتاهيه

حرية الأديان

وبجانب المسلمين فى المملكة الاسلامية كان أهل ا
وكان من أكبر دخل الدولة الجزية التى كانت تجبى منه
وكثيرون منهم كانوا موظفين كبارا كجبريل بن بختيشو

وقد عرف أن الرشيد كان شديد الوطأة عليهم ..
ألزمهم بنوع من اللبس يخالفون به المسلمين . وامر بهدم الكنائس التى بنيت بعد الفتح الاسلامى والزم النصارى بلبس الزنار . ومع ذلك كان لهم قدر كبير من الحرية فى المجادلة والمناقشة والأبحاث الدينية . وقد ترجمت التوراة والانجيل ترجمة جديدة فى عهد الرشيد ـ وكان النصارى يتبعون كنيستين سريانيتين : الكنيسة اليعقوبية ، والكنيسة

النسطورية ــ والأكثر يتبعون الكنيسة النسطورية ورئيسهم كان يعرف بالجاثليق ، وقد منح حق السكنى فى بغداد . وكان فى بغداد حى يطلق عليه حى الروم وله أيضا حق ارسال المبشرين فى النواحى المختلفة ، حتى كان من اتباعه المبشرون فى الصين . وكم لعبت الأديرة ورهبانها بعقول الشعراء امثال ابى نواس

أثر الأديرة

وكانت الأديار مثارا لشيئين متناقضين ، حياة الزهد عند الرهبان ، ينقل عنهم الزهاد وصاياهم ونصائحهم . والغزل عند الأدباء ؛ وذلك لأنه كان يوجد فى هذه الأديار بعض الجميلات والوسيمين من الفتيان والفتيات . وكانت الأديار أيضا فى الغالب تقع فى أمكنة النزهة والبساتين البديعة ؛ فأكثر فيها المجان والشعراء من شعرهم ، فقال الشاعر :

فتنتنا صورة فى بيعة ... فتن الله الذى صورها
زادها الناقش فى تحسينها ... فضل حسن انه نضرها
وجهها لا شك عندى فتنة ... وكذا هى عند من أبصرها
انا للقس عليها حاسد ... ليت غيرى عبثا فسرها

▭

وقد وصف ابن المعتز ليلة فى دير وصفا بديعا ، فقال :

سقى المطية ذات الظل والشجر
ودير عبدون أهطال من المطر

فطالما نبهتنى للصبوح بها
في غرة الفجر والعصفور لم يطر
أصوات رهبان دير فى صلاتهم
سود المدارع نعارين فى السحر
مزنرين على الأوساط قد جعلوا
على الرءوس اكاليلا من الشعر
كم فيهم من مليح الوجه مكتحل
بالسحر يطبق جفنيه على صور
لاحظته بالهوى حتى استقاد له
طوعا وأسلفنى الميعاد بالنظر
وجاءنى فى قميص الليل مستترا
يستعجل الخطو من خوف ومن حذر
فكنت أفرش خدى فى الطريق له
ذلا وأسحب أذيالى على الأثر
ولاح ضوء هلال كاد يفضحنى
مثل القلامة قد قدت من الظفر

▭

وقد روى فى الأغانى من الوان هذا الشعر الشىء الكثير . وبجانب هؤلاء اليهود والنصارى كانت الصابئة فى حران ، وقد عوملوا معاملة أهل الذمة . وفشت بينهم الفلسفة اليونانية ، كما كانت هناك صابئة فى العراق لا تزال بقاياهم الى اليوم يسمون الصبة . كما كان كثير من الرعية من أتباع زرادشت وأتباع مانى ، وقد عدوا أيضا من أهل

الكتاب وعوملوا معاملتهم ، والحق انه وان انتصر أهل الذمة باثارة عقائدهم فى الجو الاسلامى ونشاطهم وانتصر الفرس بتقاليدهم ، فقد انتصر العرب بشيئين عظيمين ، وهما : دينهم ولغتهم ..!

الكتاب

وكان للعباسيين طريقة فى تعليم أولادهم ، فهم يرسلونهم الى الكتاب ـ وكان معروفا فى ذلك العهد ـ وقد وصفه أبو نواس فى بعض شعره اذ قال :

انني أبصرت شخصا ... قد بدا منه صدود
جالسا فوق مصلى ... وحواليه عبيد
فرمى بالطرف نحوى ... وهو بالطرف يصيد
ذاك فى مكتب حفص ... ان حفصا لسعيد
قال حفص اجلدوه ... انه عندى بليد
لم يزل مذ كان فى الدر ... س عن الدرس يحيد
كشفت عنه خزوز ... وعن الخز برود
ثم هالوه بسير ... لين ما فيه عود
عندها صاح حبيبى ... يا معلم لا أعود
قلت يا حفص اعف عنه ... انه سوف يجيد

وهذا يدلنا على انه كان فى عهد أبى نواس كتاب وكان فيه بعض الأغنياء بجوار أولاد الفقراء . وكان فيه ضرب شديد ، وكان معلمو الكتاتيب مشهورين بالغفلة والسذاجة حتى وضع فيهم الجاحظ رسالة لطيفة يستخف بهم . والى جانب الكتاتيب كان الأغنياء يعلمون أولادهم بالمعلمين الخصوصيين .

ويروى الأغانى أن التلاميذ فى الكتاب كانوا اذا اتموا حفظ القرآن سير بهم فى الشوارع ونثر عليهم اللوز . وقد حدث مرة أن اصابت لوزة عين تلميذ ففقأتها . وكانت الكتاتيب هذه مقصورة على الذكور دون الاناث .

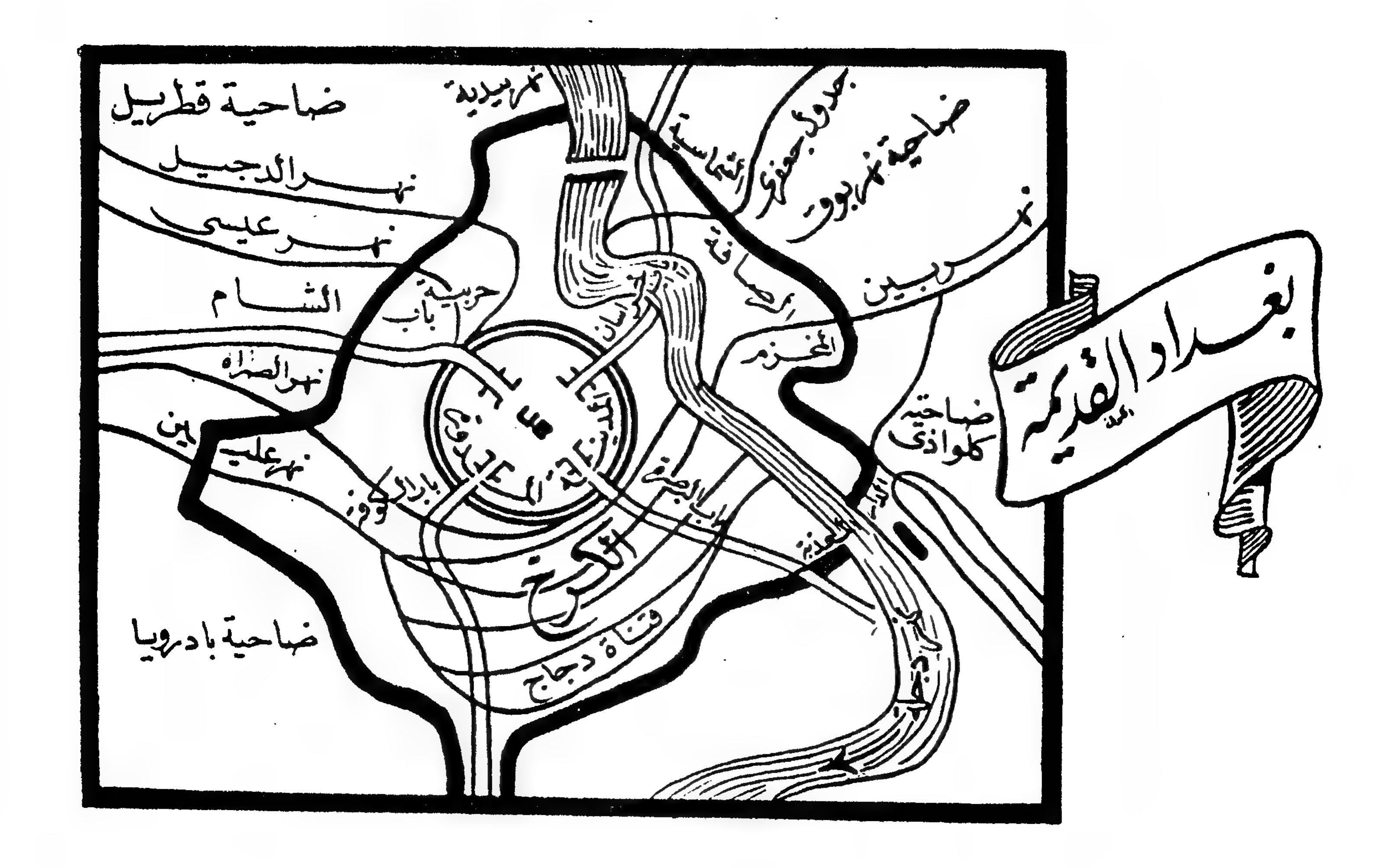
وكان من اهم مصادر الثقافة حوانيت الوراقين . وقد روى لنا الجاحظ انه استفاد كثيرا من دكان وراق كان يجلس فيه ويغلقه عليه ويستوعب ما فيه ، وكان يرد على هؤلا الوراقين بعض العلماء واللغويين يتجادلون فيما بينهم فى المسائل العلمية

□

ولم يمنع المسلمين نهى الاسلام لهم عن التصوير من ازدهار التصوير ومنه الخطوط الجميلة والموسيقى والغناء فقد تفننوا فيها كل التفنن . وكانت مجالس الرشيد وبلاط مثلا أعلى للغناء والموسيقى . وكانت هناك مدارس لهم — كما كان هناك أصحاب الموسيقى النظرية والعلمية — فهم ينقلون فلسفة الغناء عن ارسطو وفلسفة جالينوس وفلسفة اقليدس ، كالذى فعله الفيلسوف الكندى بعد ذلك بقليل

بغـــداد

عروس الأقطار الاسلامية



بغداد القديمة
ضاحية قطربل
نهر بطاطيا
نهر الدجيل
نهر عيسى
الشام
باب حرب
نهر الصراة
الشماسية
جدول جعفر
ضاحية نهر بوق
نهر بين
الرصافة
المخرم
ضاحية كلواذي
باب البصرة
الكرخ
قناة دجاج
ضاحية بادوريا
دجلة

عظمة بغداد

هذا النظام الادارى والاجتماعي الذى ذكرناه كان له مركز خاص هو بغداد • وعلى منواله تسير سائر الأقطار الاسلامية

وبغداد هذه مدينة خطها المنصور مدورة ، وجعل لها أربعة أبواب سماها بأسماء المدن التى تتجه نحوها ،وهى: أبواب : البصرة ، والكوفة ، والشام ، وخراسان • وحفر حولها خندقا ، وبنى على كل باب قبة عالية تسمح بدخول الفارس وهو شاهر رمحه ، وسورها بثلاثة أسوار ، وبنى فى الوسط قصرا ذهبيا يعرف بقصر الذهب

وبنى على مقربة من هذا القصر المسجد الجامع ، وقصور الأمراء والاشراف ودواوين الحكومة • وكانت ضواحى المدينة مليئة بالحدائق والمتنزهات والأسوار العامرة والحمامات الجميلة والجوامع الفخمة على جانبى النهر • وقد بلغ سكانها فى أوج عظمتها نحو مليونين ، وتخترق المدينة على جوانب النهر شوارع فسيحة تبلغ أحيانا أربعين ذراعا، وقد قسمت الى مربعات • ويقوم على حراستها ليل نهار حراس يقفون فى الأبراج المشيدة ، والماء يصل الى الدور فى جداول ، وتكنس الشوارع وتنظف على نظام معين ، فكان يعلو قصر الذهب قبة خضراء ، ويبلغ ارتفاعها ثمانين ذراعا وعلى القبة تمثال فارس وبيده رمح طويل، ويعد هذا القصر بزينته رمز العباسيين

▭

وكانت بغداد مدينة زاخرة بكل العلوم والفنون ، بناها

المنصور وما لبثت أن ازدهرت واحتــوت على كل أسباب الترف والنعيم . وبعد مدة قصيرة من بنائها ، كانت عروس الاقطار الاسلامية والأوربية ، فلم يكن عـــلى وجه الارض أزهر منها ، وليست تقاس عاصمة البيزنطيين ولا عاصمة شارلمان بها فى الصناعة أو فى العلم . ولم تساوها الشام ولا فارس فى عهد الدولتين الرومانية والفارسية . ويحدثنا مؤرخو بغداد بعظمة هذه الحضارة ، حتى اذا قرأناها فكأنما نقرأ وصفا للحضارة العصرية

وكثرت الرحلات منها الى البـــلاد الأخرى كالبلقـــان والصين وسيبيريا ، يدعوهم الى هذه الرحلات حب التجارة والتبشير بالاسلام . وكانوا اذا وصلوا اليها احتقــروها بالنسبة لمدينتهم مستسهلين الصعاب والمخاطرة بالنفس ، فاذا قورنت هذه المدنيـــات بمدنية المسلمين وخاصة فى بغداد ، سادت المدنية الاسلامية وكانت هي موضع التقليد للغربيين حتى أنهم كانوا يستمدون فى تشريعهم من التشريع الاسلامى . وكان العالم الاوربى وقتئذ فى جهل كبير

ويقول الخطيب البغدادى انه أحصى السميريات ، وهى نوع من القوارب بدجلة ، فكانت ثلاثين ألفا تدر على ملاحيها فى كل يوم تسعين ألف درهم ، وكان عدد الحمامات ستين ألف حمام وبازاء كل حمام خمسة مساجد

□

وكانت بغداد تنقسم الى محـــلات ، كل محلة بقعة من الارض بها مبان وقصور وشوارع ومساجد وأسواق وجوامع ،

وكل محلة عليها باب كبير يقف عليه الحراس يمنعون دخول المحلة ليلا الا باذن ، كما كان هناك أسواق متعــددة ٠٠ فسوق القطن ، وسوق السلاح ، وسوق الثــلاثاء ، الى آخره ٠٠ كما أقيمت فيها القصور الضــخمة العاليــة ، ويتبعها بيوت صغيرة للحاشية ٠ وكل قصر فيه بســتان وقد يكون فيه مسجد لأهله ٠٠ واشتهر فى بغداد أسماء قصور كثيرة منها قصر الخلد ، وقصر زبيدة ، وقصر التاج، وقصور البرامكة ، وقصر الخصيب ، وقصر المهدى ٠٠ !

المذاهب الدينية

وانتشرت فى بغداد المذاهب الدينية والفــرق ٠ قال المقدسى : « قلما رأيت فى بغداد من فقهاء أبى حنيفــة الا رأيت أربعة، الرياسة معلباقة فيها والحفظ والخشيةوالورع ـوفى أصحاب مالك أربعا: الثقل والبلادةوالديانة والسنةـ وفى أصحاب الشافعى : النظر والشغب والمروءة والحمق ٠ وفى أصحاب داود : الكبر والحدة والكلام واليسار ٠ وفى أصحاب المعتزلة : اللطافة والدراية والفسق والسخرية ٠ وفى الشيعة : البغضة والفتنة واليسار والصيت »

بساتين بغداد

كما انتشرت فيها البساتين ٠٠ استجلبوا أشجارها من كل الاقطار ، واختاروا منها ما يصلح لجو بغداد ، وعرفوا موسم كل نبت وكل شجرة ، وانتشرت بينهــم الزهور ، وأعجبوا بها ايما اعجاب ٠ وكان بعضهم يهيــم بالورد ،

وبعضهم يهيم بالنرجس ، حتى كان بعضهم يغلق دكانه فى موسم الورد ، وبعضهم يهيـــم بالورد الابيض الخالص أو الاحمر الخالص ، فتعددت أنواع الورد وكثـــر عشـــاقه ، وبعضهم يميل الى الورد الملون نصفه أحمر ونصفه أصفر، وسموه الورد الموجه

وكانت فى بغداد حدائق للورد خاصة ، وحدائق خاصة للازهار الاخرى • وعرفت لديهم لغات الورد ، فلكل نوع منه لغة خاصة للعشيق أو العشيقة • كما اشتهرت بغداد فى تلك الأيام برقة أهلها وظرفهم ، كما تشتهر باريس فى فرنسا اليوم ، وأصبح للظرف عندهم قوانين ، وأصيب أهل بغداد بالغرور والادلال ببلدتهم •• حتى قالوا فلان تبغدد أى تلطف وترقق ، وشاعت هذه الكلمة الى عصرنا هذا ، قال المقدسى : « ولا أحسن حسانا من أهل بغداد » ، وقال أيضا : « هى مصر للاسلام » ، ولهم خصـــائص من ظرافة وقرائح ولطافة ••• هواء رقيق ، وعلم دقيق ، وكل صيد بها ، وكل حسن فيها ، وكل حاذق منها ، وكل قلب اليها ، وكل حرب عليها » • وقال غيره فى وصف أهلها ندماء ظرفاء نظاف يتناشدون الاشعار ويتجاذبون أهداب الآداب • ويقولون على من ليس بغداديا اذا كان ظريفا : « فلان ليس من الرقعة ويتظرف بظرفهم »

□

وجاء فى وصف عريب المغنية البغدادية قول بعضـــهم فيها : « وكانت عريب مغنية محسنة ، وشـــاعرة صالحة

للشعر ، وكانت مليحة الحفظ والمذهب فى الكلام والظرف وحسن الصورة والرواية للشعر والأدب والملاحة والمماجنة، مما لم يتعلق به أحد من نظرائها ولا رؤى فى النساء نظير لها » . وهذا وصف يكاد يكون المثل الأعلى للبغداديات . وكان يكثر فيهم لثغة الراء بالغين كلثغة الباريسيين اليوم ، وصارت لثغتهم لغة من بعدهم ، ويعدون هذه اللثغة علامة الرقة

وقال الجاحظ فى وصف البغدادين : « أنهم يستملحون اللثغاء اذا كانت حديثة السن ومقدودة مجدولة » . وقد رويت لهم الأمثال الكثيرة الظريفة،يقولون: فلان كبش من كبش ـ مجلس بلا ريحان ، كشجرة بلا أغصان ـ مواعيد الفتيان الآل فى الفيافى ـ كلام يكتب بالغالية على خدود الغانية ـ من كلام النساء ما يقوم مقام الماء .. الخ ..

الغزل والزينة

ونشر بشار فيما بينهم الغزل المتهتك ، ونشر أبو نواس الغزل بالمذكر ، وقيدوا قوانين الظرف بوصفهم الظريف بأنه لا يتدخل فى حديث بين اثنين ولا يتكلم فيما لايفهمه، ولا يتثاءب ولا يستنثر ، ولا يتجشأ ولا يتمطى فى المجالس ولا يمد رجليه،ولا يمس أنفه،ولا يسرع فى المشى، ولا يجلس الا حيث يجلس أمثاله ، ولا يأكل مما يتخذ فى الاسواق . ولا يأخذ شعره فى دكان حلاق . ولا يماكس فى الشراء ، ولا يشارط صانعا ، ولا يصاحب وضيعا ، وأن يكون طيب الرائحة نظيف البدن ، ولا يطول له ظفر ولا يسيل له

انف . ومن أثر بغداد ما وصف به ابن جرير الطبرى فقيل : كان اذا جلس لا يكاد يسمع له تنخيم أو تبصق واذا أراد أن يمسح ريقه أخذ ذؤابة منديله ومسح جانب فيه . ومن قولهم :

لا خير فى حشـو الكلا م اذا اهتديت الى عيونه
والصمت أجمـل بالفتى من منطق فى غير حينه

ويساوى ابن بغداد ما يسمى عندنا اليوم بابن البلد ، وهم يكثرون من التزين : زينة الشعر وقد تفننـوا فيه ، وكان للجوارى تفنن فى شعرهن ، فمنهن من يجعلنه فوق رأسهن كالتاج ، ومنهن من يجعلنه كالعناقيد ، ومنهن من تسدل شعرها على أذنها ، وتقطع ما بينها وبين وجنتيها ، ومنهن من يستعمل الطرة الهلالية ، وهى أن يسدل جميع الشعر فوق الجبهة ثم يقطع منه مثال نصف دائرة فتكون كأنها الهلال

واستكثروا من الدهن للشعر ، قال الجاحظ فى أيامه : «ذهبت الفتيان، فما ترى فتى يفرق الشعر بالدهن» . وغلف النساء شعورهن بعد غسلها بالمسك والعنبر ، واستعملن الحناء والخضاب ، وكتبن على الأكف والايدى بالحناء . قال الماوردى : قرأت على راحة قائد جارية لبعض جوارى المأمون على اليمنى بالحناء :

فديتك قد جبلت على هواكا فقلبى ما ينازعنى سواكا

وعلى اليسرى :

أحبـك لا ببعضى بل بكلى وان لم يبق حبك من جواكا

وكتبت سيدة على كف جاريتها بالحناء :

أبى الحب الا أن أكون معذبا   ونيرانه فى الصدر الا تلهبا
فواكبدا حتى متى أنا واقف   بباب الهوى ألقى الهوان وأنصبا

واستكثروا من التعطر والطيب .. فاستعملوا المسك الممزوج بماء الورد المحلول ، والعود المعنبر بالقرنفل ، والعنبر البحرانى الخ . كما استعملوا بخار العود، وخشب الصندل ، وكذا البخور المندلى وهو خليط من العود والمسك واللبان ، واشترطوا لجودته أن يكون فحمه الذى يحرق فحما خشبيا من شجر الغضا لأنه عديم الدخان ، والمتأنقون منهم يستعملون فحما يسمى فحم بختيشوع الطبيب وهو الذى اخترع تركيبه ...

كثرة الدعابة

وكثرت فيهم الدعابة ، وروى لهم فيها الشىء الكثير فى أخبار الجاحظ وغيره . وكان فى بغداد كثير من المضحكين وحفاظ النوادر كأبى العبر وابن المغازى . من ذلك ماحكى ان ابن المغازى هذا وقف على باب دار الخلافة يوما يضحك الناس ويتنادر وأخذ يوما فى نوادر الخدم حتى ضحك الخادم . ودخل على الخليفة وهو يضحك فأنكر الخليفة ذلك وقال : « ويلك ما بك ؟ » فقال : « على الباب رجل يتكلم بحكايات ونوادر مضحكة» فأمر الخادم باحضاره، فاشترط الخادم أن يكون له نصف الجائزة ، فقال الخليفة بلغنى أنك مليح الفكاهة وعندك نوادر مجونية مضحكة ، فقال : « يا أمير المؤمنين الحاجة تفتق الحيلة » ، قال الخليفة : «هات

ما عندك ، فان أضحكتنى أعطيتـــك ألفى درهم ، وان لم تضحكنى فما لى عليك ؟ »

قال : « افعل بى ما أردت » ، قال الخليفة : « أنصـفت أصفعك بهذا الجراب خمس صفعات » . وكان هذا الجراب من أديم لين ، فظن المضحك أنه منفوخ وليس فيه الاهواء

فقال : « قبلت » ، ثم أخذ فى النوادر والحكايات فما ترك حكاية الا أتى بها ، ولم يترك حكاية لعربى ولا نحوى ولا ولا نبطي ولا زنجي ولا شاطر الا قصها ، والخدم يكادون يهلكون من الضحك والخليفة مقطب لا يبتسم . فقـــال المضحك : « قد نفد ما عندى » . فقـــال : « أهـــذا كل ما عندك ؟ »

قال : « نعم .. بقيت نادرة واحدة وهى أن تجعـــل الصفعات عشرا بدلا من خمس » . فأراد الخليفة أن يضحك فأمسك ، فمد المضـحك قفاه فصفع صفعة كادت أن تنقطع أنفاسه ، اذ كان الجراب مملوءا بالحصى . فصاح المضحك : « يا سيدى نصيحة » . قال الخليفـــة : « ما هى ؟ » قال : « ليس أحسن من الأمانة ولا أقبح من الخيانة ، ان لى شريكا فى الجائزة قد ضـــمنت له نصفها ، أرغب أن يحضره أمير المؤمنين »

قال : «من هو شريكك؟ » . قال : «الخادم الذى أحضرنى وقد أخذت حقى فأعطوه حقه » .. فضحك الخليفـــة حتى استلقى على قفاه !..

انتشار الزندقة

وانتشرت فى هذا العصر الزندقة .. اشتدت في عهـد

المهدى ، واشتهر بقتله للزنادقة ، واستمرت الى عهد الرشيد ، وكانت كلمة الزندقة ككلمة الشيوعية اليوم غير محدودة المعنى عند العامة ، وهى تهمة يتهم بها الشخص عدوه لينال السلطان منه . فكانوا يطلقونها على معان كثيرة:

١ - كانوا يطلقونها على المجان كحماد عجرد ، وآدم بن عبد العزيز ، لامعانهما فى اللهو

٢ - وكانوا يطلقونها على المرشحين للخلافة حتى يكرههم الناس ، وحتى يسهل للخليفة عزلهم وتولية أولاده بدلهم، أو على الشخص العظيم الذى يريد الخلفاء أن يتخلصوا منه كما أطلقوها على أبى مسلم الخراسانى وعلى البرامكة

٣ - وكانوا يطلقونها أيضا بحق على الذين يلحدون فى قوالهم كقول أبى نواس :

قدعىالكلام لقد أطعت رواية	وصرفت معرفتى الى الانكار
ورأيت اتيانىاللذاذة والهوى	وتعجلا من طيب هذى الدار
أحرى وأحزم من تنظر آجل	علمى به رجم من الأخبار
ما جاءنا أحد يخبر أنه	فى جنة من مات أو فى نار

وقوله :

يا ناظرا فى الدين ما الأمر	لا قدر صح ولا جبر
ما صح عندى منجميع الذى	تذكره الا الموت والقبر

وقوله :

قلت والكاس على كفى تهوى الالتثام
أنا لا أعرف ذاك اليوم فى ذاك الزحام

وقول ابن سيابه :

قل لمن يلحاك فيها من فقيه أو نبيل

انت دعها وارج أخــرى   من رحيــق السلسبيل

ونحو ذلك ... ومن كانوا يسمعون مثل هذا القول كانوا طائفتين : طائفة متزمتة تسخط على قائل مثل هذا هذا القول، وترميه بالالحاد وبالزندقة .. وطائفة متسامحة ترى أن هذه الاقوال قيلت على سبيل الفكاهة والتملح

٤ ـ وكانوا يستعملون كلمة زنديق أحيانا للدلالة على الظرف والتملح كالذى يقول :

تزندق معلنا ليقــول قوم   اذا ذكــروه زنديق ظريف
فقد بقى التزندق فيه وسما   وما قيل الظريف ولا اللطيف

٥ ـ وأحيانا يطلقونها بحق على طائفة من الفرس كانوا يظهرون الاسلام ويبطنون أديانهم الأولى من مانية وغيرها، وكان هذا الصنف كثيرا فى هذا العصر . يرمون الى اعادة الدولة الفارسية كما كانت فى العصور الأولى قبل الفتح الاسلامى

وأيا كانت فقد طبقت الكلمة ظلما على قوم عرفوا باصالة الفكر وحرية القول .. ولكن خشى بأســهم ، فاتهمــوا بالزندقة وقتلوا كالذى حدث مع عبد الله بن المقفع

عناصر متعددة

وكان السكان فى ذلك العهــد يتكونون من عنــاصر مختلفة تختلف فى دمها وفى عقليتها وعاداتها وتقاليـدها ومنهج تفكيرها .. وامتزجت كلها فى أتون واحد . ذلك لانها كانت تتكون من أمم مختلفة على أثر الفتوح الأموية . فكان منها العنصر البربرى الوارد من بلاد المغرب ،والعنصر

الفارسى الوارد من بلاد فارس ، والعنصر العربى الوافد من جزيرة العرب ، واليمنيـــون الآتون من اليمـــن ، والنبطيون والروم الذين كانت تسوقهم الحرب بين المسلمين والبيزنطيين وغيرهم من العناصر والأجناس الاخرى

وكان لكل من هذه العناصر عقلية خاصـــة ودم خاص وأخلاق خاصـــة • ولكل عنصر مزاياه ، وقد عدد الجاحظ مزايا العناصر فى عصره فقال : « ميـــزات أهل الصـــين الصناعة، فهم أصحاب السبق والصياغة والافراغ والاذابة والاصباغ العجيبة وأصحاب الخرط والنحت والتصـــاوير والنسيج، واليونانيـــون يعـــرفون العلل ، ولا يباشرون العمل،وميزتهم الحكم والآداب • والعرب لم يكونوا تجارا، ولا صناعا ، ولا أطباء ، ولا حسابا ، ولا أصحاب فلاحة•• فيكونون مهنة ، ولا أصحاب زرع لخوفهم من صغار الجزية، ولا طلبوا المعاش من ألسنة المكاييل ورؤوس الموازين ، ولا عرفوا الدوانيق والقراريط ، وانما ميزتهـــم قول الشعر وبلاغة المنطق وحفظ النسب والاهتداء بالنجوم والاستدلال بالآثار وتعرف الأنواء والبصر بالخيل والسـلاح وآيات الحروب ، والحفظ لكل مسموع ، والاعتبار بكل محسوس• وميزة الفرس فى الملك والســياسة ، وميزة الأتراك فى الحروب ، والزنج أطبع الخلق على الرقص والضرب بالطبل وعلى الايقاع الموزون من غير تأديب ولا تعليم ، وليس فى الأرض أحسن حلوقا منهم • وليس كل يونانى حكيما ، ولا كل صينى فى غاية من الحذق ، ولا كل اعرابى شاعرا فائقا • ولكن هذه الأمور فى هؤلاء أعم وأتم وفيهم أظهر وأكثر »

كذلك كانت هـذه العنـاصر تختلف فى الأهـواء والسياسة ، ولذلك قالوا اشتهرت الكوفة بالتشيع لعلى وأولاده ·والبصرة بالتشيع لعثمان وأهل بيته ·واشتهرت الجزيرة بأنها تضم الخوارج · وأهل الشام لا يعرفون الا آل أبى سـفيان وطاعة بنى مروان · واشتهر أهل مكة والمدينة بالميل الى أبى بكر وعمر لا يعدلون عنهما

كما كان فى هذه البلاد نصارى حافظوا على شـعائر دينهم ، ويهود كذلك ، ومجوس يوقدون نيرانهم

ولكل من هؤلاء جميعا أدب وعلم ·· وهـؤلاء كلهـم يتزاوجون فيخرج منهم مولدون يحملون جـزءا من طبائع آبائهم ، وجزءا من طبائع أمهاتهم ، وجزءا من شخصياتهم· وخير مثل على ذلك قصور الخلفاء ، فالمنصـور كان له أمة كردية ولدت له جعفرا الاصغر ، وأمة رومية ولدت له ابنا يسمى صالحا المسكين ، وامرأة أموية أولدها بنتا تسمى العالية وهكذا

وكان للرشيد زهـاء ألفى جارية غير الحرائر ·· فله جارية فارسية أولدها المأمون وأخرى أولدها المعتصـم ، ويقال انه كان للمتوكل أربعة آلاف سرية ·· الخ

▭

وكما كان هناك توالد بين الأجسام كان هنالك توالد مثله بين العقول ·· فعقل عربى مع عقل يونانى يكون منه نتاج خاص ، وكذلك العقل المتـولد بين فارسى وعربية ،

او بين عزبى وهندية ، أو بين مســـلم ونصرانية ، أو بين مسلم ويهودية

ومع هذا الاختلاف فى العناصر والأديان والعـــرف والتقاليد ، كانت كلها تصب فى قالب واحد نتيجة للبيئة الطبيعية والاجتماعية ، كالـــذى تراه اذا ذهبت الى أوربا فنظرت الى وجه حكمت بأنه مصرى ، ولا عبرة فى ذلك بين أبيض وأسمر ، وجعد الشعر ومرســله ٠٠ لأن لكل أمة وحدة يتساوى فيها الأفراد مع اختلافهم فى الدم والدين وغير ذلك ٠ وكان العنصر المتميز فىعصر الخلفاء الراشدين والأمويين هو العنصر العربى ، وسائر الاجناس كانتتبعا لهم ٠ رووا أن رجلا من الموالى خطب بنتا من أعراب بنى سليم وتزوجها ،فركب محمد بن بشير الخارجى الى المدينة وقابل الوالى ، فأرسل الوالى الى المولى وفرق بينـــه وبين زوجته وضربه مائتى سوط وحلق رأسه ولحيته وحاجبه عقابا له على أنه تزوج أعرابية ٠ فقال محمد بن بشـــير للوالى :

قضيت بســنة وحكمت عدلا	ولم ترث الحكومة من بعيـد
وفى المئتـــين للمــولى نكال	وفى سلب الحواجب والخدود
اذا كافأتهم ببنـــات كسرى	فهل يجد المـــوالى من مزيد
فأى الحق أنصف للمـــوالى	من اصهار العبيد الى العبيد

ولما نزل الحجاج واسطا نفى النبط منه ، ووسم أيديهم بالمشرط ، وكتب الى عامله بالبصرة : « اذا قرأت كتـــابى

فانف من قبلك من النبط ، فانهم مفسدة للدين والدنيا ٠ وأمر الحجاج ألا يؤم النـاس فى الكوفة الا عربي ٠ وكان العرب فى الدولة الأموية ، اذا أقبل العربى من السـوق ومعه شيء ثقيل ، فرأى مولى دفعه اليه ليحمله عنه ٠ ولو كان العربى راكبا والمولى ماشيا ٠ فلما جاء الفرس انتقموا من العرب ، وخلقوا فكرة الشعوبية يطلبون فيها المساواة ويدعون أن فى كل أمة مزايا وعيـوبا ، وألفوا فى ذلك الكتب يحقـرون من شأن العرب ويذكرون مثالبهم كالذى يقوله أبو نواس :

ومن تميم ومن قيس وغيرهما   ليس الاعاريب عند الله من أحد

الشعوبية

ولم يستسلم العرب أول الأمر لهذه الدعوة الشعوبية بل قاوموا ، وكانت المقاومة بالحرب أحيانا وبالدس أحيانا وربما كانت نكبة البرامكة نتيجة لهذه الخصومة الشديدة بين الفرس والعرب فى السر والعلن ٠ قال ابن خلدون : كان بنو قحطبة أخوال جعفر وهم عرب من أعظم الساعين عليهم ، وأخيرا انتصر الفـرس على العرب بهزيمة الأمين وذهب ريحهم كمـا ذهب ريح الفـرس على يد الأتراك فيما بعد

وزاد الشعوبية انتصارا أن الخلفاء تعصبوا للاسلام ولم يتعصبوا للعرب ، وظهر على لسان أبى نواس والخـريمى ومهيار الديلمى وبشار الاعتزاز بالنسب الفارسى ٠ يقول بعضهم :

ولست بتـارك ايوان كسرى   لتوضـح أو لحومل فالدخول
وضب فى الفلا ساع وذئب   بها يعوى،وليث وسط غيل

ويقول الخريمى :

انى امرؤ من سراة الصغد البسنى   عرق الاعاجم عرقا طيب الخبر

ويقول :

أبا الصغد بأس اذ تعيرنى جمل   سفاها ومن أخلاق جارتها الجهل
فان تفخرى يا جمل أو تتجملى   فلا فخر الا فوقه الدين والعقل
أرى الناس شرعا فى الحياة ولا يرى   لقبر على قبر علاء ولا فضل
اذا أنت لم تحم القديم بحادث   من المجد لم ينفعك ما كان من قبل

ويقول المتوكل :

أنا ابن المكارم من نسل جم   وحائز ارث ملوك العجـم
معى علم الكابيـان الـذى   به ارتجى أن أسـود الأمم
فقل لبنى هاشم أجمعـين   هلموا الى الخلع قبـل الندم
ملكناكم عنـوة بالرماح   طعنـا وضربا بسـيف حذم

وعلى العموم حارب الفرس العرب بالشعوبية من طرق مختلفة: من طريقة وضع شأن العرب بما ألفوا من الكتب، ومن عيبهم آلاتهم فى الحرب ووضعهم الكتب فى منـاقب العجم ومثالب العرب . وكثرت فى هـذه الآونة الكتب المعروفة بكتب المثالب ووضع القصص الشنيعة فى مثالب العرب ومفاخر الفرس .. الخ

المدن الزاهرة

والى جانب بغداد كانت مدن أخرى عامرة زاهرة، وان كانت أقل منها . وهى أيضا يتدفق المال فيها وان كان تدفقا أقل

من تدفقها فى بغداد ، فقد جرت العادة أن تصرف المدينة على نفسها وعلى ما يتبعها وعلى عمارة ما خرب منهـا ، ثم يرسل الباقى الى الخليفة فى بغداد ، فمن أهم المدن فى عصر الرشيد البصرة • عنى العرب بتخطيطها فجعلوا شارعها الأعظم ستين ذراعا ، وجعلوا عرض كل زقاق سبعة أذرع، وجعلوا أوسط كل خط ميدانا فسيحا لمرابط خيولهم وقبور موتاهم •وقد اشتهرت بالتجارة الواسعة بين الهند والصين والمغرب والحبشة

واشتهر أهل البصرة كذلك بالاسفار البحـرية حتى قالوا : « أبعد الناس نجعة فى الكسب بصرى » • وبالغ الواصفون فى كثرة أنهارها وكثرة الزوارق فيها •ولعلهم لكثرة ما رووا من عدد الانهار أنهم كانوا يعدون الجداول أنهارا ، واشتهرت بالنخيل الكثير المتعدد الأنواع الى يومنا هذا ، واشتهرت كذلك من مدن العـراق الكوفة ، وقد عرفت بتشيعها لأن الامام عليا جعلها عاصمة خلافته الى أن قتل • وناظرت الكوفة البصرة فى المذاهب النحوية ، فكان للكوفيين مذهب وللبصريين مذهب وكان بينهمـا خلافات كثيرة •• وكل يدلى بحجتـه ، كذلك اشتهرت مذاهب المعتزلة البصريين ومذاهب المعتزلة من غيرهم •وقد كان منشأ مدرسة الاعتزال هى البصرة فى حلقة من حلقات الحسن البصرى

□

واشتهرت من مدن مصر الفسـطاط ، وهى أول مدن المسلمين فى مصر •• اتخذها العرب معسكرا لهـم حين

فتحوها . ثم أخذت تزدهر حتى فاقت البصرة والكوفة ، وزودت فى أيام العباسيين بكل ما تحتاج اليه المدن .وزاد من جمالها وقوعها على النيل ، ثم كانت القيروان بالمغرب ودمشق وحمص فى الشام ، والموصل بالعراق ، والاهواز بفارس ، ومكة والمدينة فى جزيرة العرب ، ولا نطيل فى وصفها لأن ذلك يحتاج الى كتاب وحده، وكلها كانت سببا فى ثروة الخلفاء العباسيين ، واغداقهم المال على الولاة والعمال والأدباء والفنانين ..

وقد اختلفت مزايا كل قطر من ناحيته المادية والمعنوية فلكل بلد حاصلاته وما يتقنه : كالكاغد والنسيج والتمر من البصرة ، والثلج من جبال لبنان ، والسكر من الفرس الى غير ذلك . كما كان الشأن فى العلوم . فحركة صوفية تنشأ فى مصر . وحركة اعتزالية تنشأ فى بغداد، وأدب يتأقلم بكل اقليم . ومما قاله المقدسى فى ذلك : « ان اقليم العراق اقليم الظرفاء ، ومنبع العلماء .. لطيف الماء عجيب الهواء ، مختار الخلفاء ، أخرج أبا حنيفة فقيه الفقهاء ، وسفيان سيد القراء ، وأبا عبيدة والفراء . وبه البصرة التى قوبلت بالدنيا وبغداد الممدوحة فى الورى ، وكوفة الجليلة ، وسامرا ، وقد لون كل أدب وعلم بلون أهله ونبغ من كل بلد نابغون هم نتاج أقليمهم

ازدهار التصوف

وفى عهد الرشيد نما فى العراق التصوف والدعوة الى الاهتمام بباطن النفس لا بظواهرها ، وبحقيقة الشريعة ، لا مجرد أعمال الجوارح . ورياضة النفس عن طريق الزهد

والعبادة ، والوصول الى المعرفة عن طريق الوحى والالهام، وادراك الحقيقـــة بالذوق والشعور لا بالمنطق والتجارب والقياس . واشتهر من المتصوفة : ابراهيم بن أدهم سنة ١٦٢ ، وشقيق البلخى سنة ١٩٥ ، ومعروف الكرخى سنة ٢٠٠ ، وهو القائل : « التصوف الأخذ بالحقائق واليأس مما فى أيدى الناس » . ثم بشر الحافى سنة ٢٢٢ وهـــو القائل للمحدثين : « أدوا زكاة هـــذا الحديث » . قالوا : « ما زكاته ؟ » . قال : « أن تعملوا بخمسة أحاديث من كل مائتين ... »

وأخذ المتصوفون يضعون الكتب فى التصـــوف ، كما كان يفعل الفقهاء فى تأليف الفقه

وثار الخلاف بين الفقهاء والمتصوفة لاختلاف النزعتين ، فالمتصوفة يعتمدون على القلب وعلى الذوق وعلى المعـــرفة من طريق الالهام .. والفقهاء يعتمدون على ظاهر القرآن والسنة ، وعلى الاستنباط العقلى

وكانت الخصومة أشد ما تكون بين المتصوفة والحنابلة لشدة تمســـك الحنابلة بظاهر النصوص ورميهم الصوفية بالزندقة

الرشيد

في قصر الخلد



تولية الرشيد

في هذا الوضع ، وفي هذا الجو ، وفي بغداد هذه ، وعلى هذا النظام الذى ذكرنا بعضه تولى الرشيد ٠٠ وقد جلس على العرش فى قصر فسيح يسمى « قصر الخلد » ، بناه جده المنصور ، وجعله فى الجانب الغربى من دجلة ، وهو يقع فى منحنى نهر دجلة ، بازاء باب خراسان حتى اذا شبت نار الثورة كان فى استطاعته أن يفر الى خراسان ، وهى أهم مؤسس للدولة العباسية ٠٠ وفى ناحية من نواحيه على الشاطىء الآخر قصور البرامكة ٠٠ هذا قصر يحيى ،وهذا قصر جعفر ، وهذا قصر الفضل

وله فناء واسع قد ملىء بالجوارى والغلمان على مختلف الاشكال والالوان ٠ وقد كان الرشيد يغالى فى أثمانهن ، وخصوصا اذاكانت الفتاة جميلة أو متعلمة الغناء أو أديبة٠ واشتهر من جوارى القصر اللاتى غلبن على الرشيد ماردة وهى التى ولدت منه المعتصم ، وهيلانة وهى يونانية كما يدل عليها اسمها ، وقد ماتت وحزن عليها الرشيد حزنا شديدا وقال الشعر فيها :

أف للدنيا وللزينة فيها والأثاث

اذ حثا الترب على هيلان فى الحفرة حاث

ويقول فيها ابان اللاحقى على لسان الرشيد :

بت ضجيع الحزن ما أغفى لحادث جل عـــن الوصف
حزنان : حزن منهما ظاهر وأوجـــع الحزنين ما أخفى
أنت أهل الترب من فوقها مــواريا تحت الثرى أنفى
لهفى على هيــــلان لو أنه يرد شـــيئا فاتنــا لهفى

وهذا القصر كأنه مدينة صغيرة له أجنحة متعددة ٠٠هذا جناح للخيزران أم الرشـــيد بكتبها وغلمانها وجواريها ، وكانت مواكب الأمراء تأتي الى بابهـــا فنهاها الهادى عن ذلك ٠ وقال لها : « متى وقف ببابك أميرضربت عنقه ٠ أما لك مغزل يشغلك أو مصحف يذكرك أو ســبحة » فقامت الخيزران وهى ما تعقل من الغضب ٠ وقد ذكروا أنها كان لها شأن فى الدسيسة التى حيكت حول ابنها الهادى حتى قتل ، فلما تولى الرشـــيد أعاد لها سطوتها وسلطانها ٠ ولكنها لم تطل مدتها ٠٠ فماتت بعـد ثلاث ســـنوات من خلافته ٠ وكان يوم وفاتها يوما ممطرا ، فمشى الرشيد فى جنازتها٠وكانت امرأة عاقلة قوية السلطان كبيرةالشخصية، تتدخل فى شئون الدولة وتسيرها ، يعينها على ذلك يحيى البرمكى وأولاده ٠ وقد خاف ابنها الهادى من ســـطوتها وتدخلها وشخصيتها ، فحجر عليها فكرهته ٠٠

وهذا جناح زبيدة زوج الرشيد ، وهى كذلك شخصية قوية خيرة لها خدمها الخاصون وغلمانها وجواريها ٠وكانت كالخيزران فى تدخلها السياسى ، غير أنها لم تكن مثلها في دس الدسائس بل كانت بارة محسنة ٠ تنفق الأموال على الملاجىء والمستشفيات ، ومنآثارها الخالدة عين الماء المسماة

يطعمها ، والتى أنشأتها فى الحجاز ومدت بها الماء الى مكة . ثم كان فى حجرها ابنها محمد الأمين

وهذا جناح علية أخت الرشيد ، وكانت شاعرة،جميلة، مفتنة لها عشاقها وزوارها ومجالس أنسها وسرورها

وهذا جناح العباسة أخت الرشيد ، فتاة جميلة أيضا شاعرة تحب جعفر البرمكى وتراسله

وأخيرا جناح الرشيد وهو أعظم الأجنحة ، فيه جواريه الكثيرة وغلمانه الكثيرون وأطباؤه ومضحكوه ومغنوه الى آخر ما هنالك

وعلى الجملة ، فكان القصريموج بالفتيان والفتيات والكبار والصغار .. هذه جارية فارسية تتكلم بالفارسية ، وهذه يونانية تتكلم باليونانية ، وهذه حبشية تتكلم بالحبشية ، وهذه بربرية تتكلم بالبربرية الخ . ثم كانت تموج فى القصر تيارات مختلفة .. تيارات سياسية من الخيزران وزبيدة . فالخيزران توالى البرامكة وتؤيدهم ، وتكره الفضل ابن الربيع وتبعده . وتيار من زبيدة : تكره البرامكة وتعاكسهم ، وتؤيد الفضل بن الربيع وتقربه . ثم تيارات أخرى غرامية بين شابات القصر وشبانه ، والعباسة ، وعلية ، والجوارى والغلمان

وكانت جوارى الرشيد فيما يقولون تبلغ نحو ألفى جارية مختلفة الاجناس .. منهن الروميات ، والسنديات ، والفارسيات . وقد قال خبير بالرقيق وأنواعه : ان لكل نوع من أنواع الرقيق ميزات خاصة يعرف بها،فالهنديات وديعات لينات الجانب هادئات قادرات على حسن ورعاية

الطفل . ولكن سرعان ما يعرض لهن الذبول . واشتهرت السنديات بالخصر النحيف والشعر الطويل . واشتهرت مولدات المدينة بالدلال والميل الى السرور والفكاهة والمجون وبحسن الاستعداد للنبوغ فى الغناء ، وعرفت مولدات مكة بدقة المعصم والمفصل والعيون الناعسة . وعرفت الاماء البربريات المغربيات بأنهن لا يبارين فى حسن الانتاج ، وهن لدماثة خلقهن ولين عريكتهن صالحات لان تعودن القياء بمختلف الاعمال

والمثل الأعلى للجارية كما يقول أبو عثمان الدلال أمة تكون من أصل بربرى ، فارقت بلادها فى التاسعة من عمرها . ومكثت ثلاث سنين فى المدينة ومثلها فى مكة . ثم رحلت الى العراق فى السادسة عشرة من عمرها لتتثقف بثقافته .. فاذا بيعت فى الخامسة والعشرين كانت قد جمعت منجودة الأصل ودلال المدنيات ورقة المكيات وثقافة العراقيات

والسودانيات كن يغمرن الأسواق . وقد عرفن بقلة الثبات والاهمال ، كما عرفن بالميل الى الضرب بالدف والرقص.وهى أحسن خلق الله بياض أسنان ، ولكن يعاب عليهن نتن الابط وخشونة الملمس . والحبشيات عرفن بالضعف والترهل والاستعداد لمرض الصدر ، وهن على عكس السودانيات لا يحسن الغناء ولا الرقص ولكنهن قويات الخلق موضع للثقة ، أهل للاعتماد عليهن

قصر الخلد

ولا يخلو قصر كهذا من العلاقات الغرامية ولذة الوصال

وألم الخصام ونحو ذلك ، من ضروب العواطف حتى ليحكون أن سبب اتصال الرشيد بأبى يوسف أن الرشيد رأى مرة منظرا غراميا لم يعجبه ، فاستدعى أبا يوسف لسؤاله : هل على الخليفة اذا رأى هذا المنظر أن يحد الجناة ؟ فأفتاه بلا ، لأن القاضى لا يقضى بعلمه ، فسرى عن الرشيد وأجزل لأبى يوسف الصلات، وتوثقت الصلة بينه وبين أبى يوسف من ذلك الحين ، حتى عينه قاضى القضاة

تضيف الى عظمة قصر الخلد عظمة بغداد ، فقد كانت مملوءة بالقصور الفخمة والميادين الفسيحة والأسواق الحافلة بالدكاكين الممتلئة بالسلع . وكان يأتيها من مصر البلسم والكتان والقمح والنحاس والذهب وزمرد النوبة . ويأتيها من الحبشة العاج ومن الأندلس الحرير والصينى والجلود والأسلحة الصلبة . ومن اليونان النباتات ذات العطر الطيب والصمغ . ومن سوريا الزجاج والبللور والأصداف ..

□

ومن بلاد العرب البخور . ومن سوماطرة البخور الجاوى والزعفران والقرفة . ومن جاوى الماس والعاج والاخشاب الثمينة والصندل . ومن خليج فارس اللآلىء والصدف . ومن سيلان الياقوت واللازورد ومن فارس الأصواف . ومن سيراز الفيروز والعقيق والمرجان . ومن أصفهان الأقمشة المختلفة . ومن بخارى الأصواف والسجاجيد والاقمشة . ومن مرو الزبرجد . ومن الموصل صفائح الصلب

ومن سمرقند الأطلس والفضة والاقمشة الناعمة. ومن الصين الصينى وحجر الشب والحرير الخام والصبغ . ومن التبت المسك . وهـذه كلها تحول أحسن ما يرد الى قصر الخلد والقصور حوله ، وأحيانا كثيرة يسير الشابان هرون الرشيد وجعفر ووراءهما مسرور الخـادم متخفين للوقوف وشراء خير ما فى الاسواق ..كما تروى لنا ألف ليلة وليلة

▭

ويقول الاقتصاديون أن الدينار والدرهم ليس لهما قيمة ذاتية ، وأن قيمتهما بقدرتهما الشرائية . وكانت قيمتهما فى عهد الرشيد كبيرة لا تقاس بما نحن عليه اليوم . فقد عثرت على قائمة بتثمين بعض الاشياء فيها أن الكبش كان يباع بدرهم ، والجمـل بأربعة دنانير ، والتمر ستون رطلا بدرهم . والزيت ستة عشر رطلا بدرهم . والسمن ثمانية أرطال بدرهم . وكان الرجل يعمل فى سور بغداد كل يوم بخمس حبات ، وكان ينادى على لحم البقر فى جبانة كندى تسـعون رطلا بدرهم ، ولحم الغنم ستون رطلا بدرهم . والعسـل عشرة أرطال بدرهم . والاستاذ البناء بخمس حبات . ومن المعلوم أنه فى أيامهم كانت الحبة ثلث درهم ، والدانق سدس درهم ، والدينار كانت تختلف قيمته تبعا لنقاء فضة الدراهم أو عدم نقائها ، فكان يساوى مرة عشرة ومرة خمسة عشر ومرة عشرين . وكان مقدار الدينار ذهبا يساوى ستين قرشا مصريا تقريبا ...

ثقافة الرشيد

وكان الرشيد مثقفا ثقافة عربية واسعة ، علمه الأدب المفضل الضبي ، والنحو الكسائي ، وملأه الأصمعي طرفا من طرائفه الأدبية وملحا من ملحه العربية

وكان نديمه في الغناء اسحاق الموصلي ، وتدلنا مناقشاته الكثيرة للعلماء والأدباء على بحر واسع في العلم والأدب . وقد روى عنه أنه كان ينقد الشعراء في أشعارهم ، وينقد المغنين في غنائهم ، ويحصي غلطات هؤلاء وهؤلاء ، ومزايا هؤلاء وهؤلاء ، كما كان من أدلة ذلك ما جمع له من الاصوات الممتازة التي اختارها أبو الفرج الأصفهاني وبنى عليها كتابه الأغاني

ولعل أكبر ما يدل على ثقافته وصيته المشهورة التي تقدم بها الى الأحمر معلم ولده محمد الأمين اذ قال : « يا أحمر ، ان أمير المؤمنين قد دفع اليك مهجة نفسه وثمرة قلبه ، فصير يدك عليه مبسوطة . وطاعته لك واجبة . وكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين . أقرئه القرآن ، وعرفه الاخبار ، وروه الاشعار ، وعلمه السنن ، وبصره بمواقع الكلام وبدئه ، وامنعه من الضحك الا في أوقاته ، وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم اذا دخلوا عليه ورفع مجالس القواد اذا حضروا مجلسه ، ولا تمرن بك ساعة الا وأنت مغتنم فائدة تفيده اياها من غير أن تحزنه فتميت ذهنه ، ولا تمعن في مسامحته فيستحلي الفراغ ويألفه ، وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة ، فان أباهما فعليك بالشدة والغلظة » وهي وصية حكيمة وضع فيها الرشيد منهج التعليم ، ومنهج

الاخلاق ٠٠ واتخذت على مر العصور مرشدا لكل من حاول التعليم وأراد ممارسته

▭

ويروون أن الرشيد مرة دعا المفضل الضبى والمأمون عن يمينه ومحمد الأمين عن يساره ، قال المفضل فسلمت ، فأومأ الى بالجلوس فجلست ، فقال لى : « يا مفضل »٠ قلت: « لبيك يا أمير المؤمنين » ٠ قال : « كم من الاسماء فى فسيكفيكهم الله ؟» ٠ فقلت : «ثلاثة أسماء يا أمير المؤمنين» ٠ قال : « وما هى ؟ » ٠ قلت : « الياء لله عز وجل ، والكاف الثانية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والهاء والميم والواو للكفار » ٠ قال : « صدقت » ٠ كذا أفادنا هذا الشيخ ، يعنى الكسائى ، ثم التفت الى الأمين فقال له : « فهمت » ٠ قال : « نعم » ٠ قال : « أعد المسألة » فأعادها كما قال المفضل ٠ قال الرشيد : « يا مفضل هل عندك مسألة ؟» ٠ قلت : نعم يا أمير المؤمنين ٠ قول الفرزدق :

أخذنا بأطراف السماء عليكم لنا قمراها والنجوم الطوالع

قال الرشيد : « هيهات قد أفادنا هذا قبلك ، فقد أخبرنا الشيخ « يعنى الكسائى » ، ان لنا قمريها يعنى الشمس والقمر ، كما قالوا سنة العمرين يريدون أبا بكر وعمر ٠ وذلك أنه اذا اجتمع اسمان من جنس واحد ، وكان أحدهما أخف على أفواه القائلين غلبوه فسموا الأخير باسمه ٠ فلما كانت أيام عمر أكثر من أيام أبى بكر وفتوحه أكثر غلبوه . وسموا أبا بكر باسمه ٠ وقد قال الله عز وجل : « بعد

المشرقين فبئس القرين» وهو المشرق والمغرب. قال المفضل: « بقيت مسألة » . قال : « وما هى ؟ » . قلت : « أراد بالشمس ابراهيم صلى الله عليه وسلم خليل الرحمن ، وبالقمر محمدا صلى الله عليه وسلم . والنجوم الخلفاء الراشدين من أبائك الصالحين. وهو تفسير يرمى الى نوع من النفاق . قال : « يا فضل بن الربيع احمل اليه مائة ألف درهم ومائة ألف لقضاء دينه » الى كثير من أمثال هذه الحكايات التى تدل جملتها على ثقافة واسعة واستفادة من المفضل والاصمعى والكسائى وأمثالهم

ويروى المفضل أيضا أن الرشيد استدعاه وسأله عن بيت من الشعر ، فأجاب وفق ما توقع الرشيد . فنزع الرشيد من يده خاتما قيمته ألف وستمائة دينار . فلما علمت الخيزران بذلك أعطته الألف والستمائة ، وأخذت الخاتم منه ، وردته الى الرشيد لأنه كان يعجب به . فرده الرشيد الى المفضل ، وقال له : « لا يليق بالخليفة أن يسترد ما أعطى ، فصفا له الألف والستمائة

امتزاج الثقافات

والى جانب ذلك كان فى عهد الرشيد اختلاط الثقافات كأنها جداول صغيرة تكون منها نهر كبير .. فأولا . كان من هذه الثقافات ، الثقافة الفارسية وهى التى عظمت فى الدولة العباسية ، مما ألفها عبد الله بن المقفع وأمثاله .وقد كسبت الثقافة الاسلامية العباسية من الفرس أشياء كثيرة، منها الالفاظ اللغوية،وخاصة ما ليس للعرب عهد بمدلولاتها،

مثل ألفاظ المأكولات الفارسية والنباتات الفارسية وضروب الملابس والأثاث والرياش ...

روى أن فارسيا ناظر عربيا بين يدى يحيى بن خالد البرمكى .. فقال الفارسى : « ما احتجنا اليكم قط فى عمل ولا تسمية . ولقد ملكتم فما استغنيتم عنا بأعمالكم ولا لغتكم . حتى أن طبيخكم وأشربتكم ودواوينكم وما فيها على ما سمينا ما غيرتموها كالاسفيداج والسكباج والدوغباج وكالسكنجبين والخلنجبين والجلاب وأمثالها وكالروزنامج والاسكدار وأمثالها » . فسكت عنه العربى ، فقال له يحيى ابن خالد . قل له : « اصبر لنا نملك كما ملكتم ألف سنة بعد ألف سنة كانت قبلها لا نحتاج اليكم ولا الى شىء كان لكم » . ونقرأ فى كتاب البيان والتبيين للجاحظ ، فنراه يستعمل ألفاظا كثيرة من أصل فارسى .. فيسمى الطريق اذا التقى فيها أربعة طرق « جهارسو » والجهارسو فارسية، ويسمى السوق وازار والوازار فارسية وهكذا

وثانيا ، نقلوا كثيرا من كتب الأدب الفارسية الأصل .. وكثيرا من القصص الفارسية . ويحكون أن كتاب ألف ليلة وليلة أصله فارسى . وقد ترجم عبد الله بن المقفع كتاب كليلة ودمنة عن الفارسية كما ترجموا عن الفارسية كتاب زرادشت المسمى افستا ، ترجموه هو وما عليه من شروح . وقد ترجم الحسن بن سهل كتاب « جاويدان خرد » عن الفارسية

□

هذا الى أن كثيرا من الفرس كانوا قد أسلموا وتعلموا

العربيـــة ، فكانوا ينقلون الى العربية ما تعلموه من أفكار فارسية كما نقل كثير من التوقيعات والحكم الى العربية من غير نص عليها ، بل لعل من كان من أصـل فارسى كله أو بعضه ، كبشار بن برد وأبى نواس · لهم معان مأخوذة من أصل فارسى·ومن رأى ابن خلدون ، أن كثيرين من واضعى العلوم كسيبويه واضع النحو ، وأبى حنيفة واضع الفقه ، ونحوهما من أصل فارسى · وأن الفارسيين فى هذا الباب أكثر من العرب · وسواء صح هـــذا أو لم يصح ، فأقل ما يدل عليه أن كثيرا من الفرس وضعوا كثيرا من العلوم · بل ذهب بعضهم الى أنشعر أبى العتاهية لا يمت الى العرب بصلة ، لأنه ليس مناسبا لحياة الملوك وترفهم ونعيمهم فى الحياة ، وانما هو شعر مستمد من الفارسية ، وخصوصا من مذهب مانى الزاهد

كذلك انتشرت الثقافة الهندية بدخول كلمات من الأصل الهندى الى اللغة العربية . وقد سموا السيف مهندا أخذا من الهند · ومن أسمائهم النسائية : هند ، وكليلة ودمنة الذى ترجم الى العربية من الفارسية من أصل هندى·وكان هناك علماء من أصل هندى تثقفوا بالثقافة العربية ونشروا الافكار الهندية كابن الاعـرابى · فقد رووا أن أباه زيادا كان من أصل هندى ، كذلك نقل الينـا أن التجـارة بين المسلمين فى العهد العباسى والهند كانت واسعة النطاق فى التـــوابل وأنواعها · وقد نقلت الى العربيـــة مدلولاتها وأسماؤها·وحكى لنا البيرونى أنهم كانوا مهرة فى الحساب والهندسة ، وأن لهم طريقة تخالف طريقة اليونان · هذا

الى أن كثيرا من عقائدهم فى الحلول ووحـدة الوجود دخلت فى التصوف الاسلامى

▭

وهناك ثقافة يونانية دخلت فىالدول العربية منها ألفاظ كثيرة ، كما دخلها الطب والفلسفة ، وكان فى بلاد العرب كثير منالمثقفين بالثقافة اليونانيةكعلماء حران والاسكندرية وغير ذلك . نعم ان العرب لم يستسيغوا الأدب اليـونانى فى القديم لأنه يبعد كثيرا عن الادب العربى . فلم يأخذوا منها كثيرا ، وان أخذوا منها الطب والمنطق والفلسفة

والثقافة الرابعة . الثقافة الرومانية . من مثـل ألفاظ التقطوها من الجوارى الرومانيات ومن الرومانيين أثنـاء حروب المسلمين معهم وأسرهم الاسـارى منهم . وكان مما عنى به فى عهد الرشـيد وخلفاء العباسيين عامة ، الطب والتنجيم فاتخذوهما من الوظائف الرسمية . وكان لكل خليفة طبيب خاص ومنجم خاص . أما حاجة الخلفاء للطب فواضحة ، اذ كان أكثر الخلفاء مرضى يحتـاجون الى طبيب يداويهم ورووا أن المنصور كان مريضا بمعدته ولم يستطع أطبـاؤه معالجته ، فاسـتدعى طبيب من جنديسابور هو جرجيس بن بختيشوع ، وكانت مدرسـة جنديسـابور مدرسة عظيمة وتعد مصدرا للثقافة اليونانية ومركزا لنشر فلسفتها وعلومها . أسسها كسرى أنو شروان وبنـاها على شـكل القسطنطينية. واستجلب لها أطباء من الروم ثم خلفهم من بعدهم من حل محلهم من أهل البـلاد . وكان

الذى أنشأه فيه بيمارستانات لمعـالجة الفقراء . فلما جاء الرشـيد استطب جبريل بن بختيشوع ، وأمره بانشـاء بيمارستان ببغداد على نمط ما لجنديسابور ، وكانت عائلة بختيشوع كلها نصارى نساطرة

□

وطبيب الرشيد هو جبريل بن بختيشوع ، وقـد أراد الرشيد أول الأمر أن يمتحنه فأحضر له بولا مجهولا . فقال جبريل ليس هـذا بول انسان . لأنه ليس له قوام بول الناس ولا لونه ولا رائحته . وكان جبريل بن بختيشوع ، هذا مشهورا بالفضل جيد التصرف فى المداواة ، على الهمة سعيد الجد ، حظيا عند الخلفاء ، رفيع المنزلة عندهم ، تأتيه منهم الأموال العظيمة . ولما مرض جعفر بن يحيى بن خالد البرمكى أيام رضاء الرشـيد عنهم ، استدعى جبريل بن بختيشوع هذا فعالجه وشاء الله أن يبرئه فى مدة ثلاثة أيام . ومرة تمطت حظية من حظايا الرشيد ورفعت يدها فبقيت منبسطة ، ولم ينفعها علاج الأطباء ولا الادهان . . فاستدعى جبريل فاستحضرها وأراد أن يكشف عن ساقها، فانزعجت الجارية وحركت يدها وبرئت ، وكان الرشيد ينتصح بقوله فيما يأكل ومقدار ما يشرب ، وبلغ عنده منزلة عالية حتى قالوا انه كان كل من تقلد عملا من الرشيد لا يخرج الى عمله الا بعد أن يمر على جبريل . وقد ثار عليـه العلوية لقربه من الرشيد حتى أرادوا أن يقتلوه . وعلى العموم كان طبيب القصر وقد قال فيه أبو نواس :

سألت أخى أبا عيسى وجبريل له عقل
فقلت : الراح تعجبني فقال : كثيرها قتل
فقلت له : فقدر لى فقال وقوله فصل :
وجدت طبائع الانسا ن أربعة هى الأصل
فأربعة لأربعة لكل طبيعة رطل

وقال له المأمون يوما :

أخى طبك ياجبريـ ـل ما يشفى ذوى العلة
غزال قد سبا عقلى بلا جرم ولا زلة

الايمان بالتنجيم

وأما التنجيم ، فكان الخلفاء يعتقدون أن للنجوم أثرا فى احداث الكون من موت وحياة وسعادة وشقاء وصحة ومرض وسعة وتقتير فى الرزق وغير ذلك. ونشأ فى الناس الاعتقاد بهذا

وكان من أكبر من أشاعه الشيعة فنسب اليهم كثير من التنبؤ بالحوادث ، وربما كان من أكبر الاسباب فى ذلك دعايتهم لانفسهم ، عن طريق التنبؤات . ونسب لعلى بن أبى طالب كثير من أخبار بنى أمية وسقوطهم وظهور بنى العباس وغير ذلك من الاحداث استنادا الى قوله : «سلونى قبل أن تفقدونى »

وقد نسبوا اليه تنبؤات باحداث فى الدولة الأموية والدولة العباسية ، ومقتل الحسين ، وخروج عائشة يوم الجمل ، وخروج الأمر من العلويين الى العباسيين ، وأحداث السفاح ، وبعض أحداث بنى بويه ، ونحو ذلك . ولكن

يظهر أن أكثرها وضع بعد ظهور الحوادث ثم اسندت اليه على أنها من التنبؤات

وشاع بين الشيعة لأجل ذلك علم الجفر وهو الذى حرف فيما بعد الى « الشيفرة » . وسواء صحت هذه الاخبار أو لم تصح ، فان الناس والخلفاء والامراء كانوا يعتقدون فيها ويبنون أعمالهم عليها . وكتاب الجفر هذا كان أصله ان هارون بن سعيد العجلى وهو رأس الفرقة المعروفة بالزيدية، كان له كتاب صغير يعرف بالجفر . يرويه عن جعفر الصادق . وفيه أخبار عما سيقع لأهل البيت على العموم ، ولبعض الاشخاص منهم على الخصوص . وكان مكتوبا عند جعفر على جلد ثور صغير . فرواه عنه هرون العجلى وسماه الجفر . والجفر فى اللغة هو الصغير . فصار هذا الاسم علما على هذا الكتاب عندهم . وشاع فى الناس وتناقلوه وزادوا عليه . وأنشأوا فى ذلك ما يسمى بالملاحم وهى أشعار تروى فى أخبار دولة على الخصوص أو دول على العموم . وأكثرها موضوع .. تروى فيه الحوادث الماضية صحيحة . ويرجع تاريخها الى ما قبلها للدلالة على التنبؤ . أما ما يدل على المستقبل فغير صحيح غالبا

ويروون انه عثر فى عهد المهدى على كتاب فى الجفر يروى أن مدة حكم المهدى عشر سنوات . وشاع ذلك فى الناس . فلما علم الربيع وزير المهدى قال ان الخليفة المهدى لو علم ذلك لقتلنا ، فاستدعى الوراقين وأمرهم أن يكتبوا الكتاب

ويجعلوا بدل العشر أربعين ، حتى يطمئن المهـدى الى مدة حكمه . وهكذا من باب طرق الوضع . وسبب ذلك على ما يظهر لى أن لبعض الناس قدرة على معرفة الغيب ، ويسمون بالملهمين ، اما عن طريق ما يسميه الافرنج بالتليبائى ، أو بالتنويم المغناطيسى أو نحو ذلك ، مما لم يكتشفه العلم الى اليوم..وهذا لمعرفة الماضى والحاضر أو قراءة أفكار الانسان

▭

أما معرفةالمستقبل فلا أظن أن أحدا يعرفه اذ قد استأثر الله بعلمه . والقرآن الكريم يقول على لسان النبى صلى الله عليـــه وسلم : « لو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء » . فكيف بغيره ، ولكن النـــاس تزيدوا وابتدعوا طرقا كثيرة من قراءة الكف والودع ونحو ذلك . واعتقدوا بتأثير النجوم . وكان بعض العلماء معتدلين فى ذلك . فقد كان بعض الفلاسفة يعتدل فىالاعتقادبالتنجيم، ويعلل بعضه تعليلا معقولا . وذلك ان للشـــمس والقمر والنجوم أحداثا فى الدنيـــا لا شك فيها كأثر الشمس فى الفصول الاربعة وأثر القمر فى المد والجزر . وأثرهما معا فى الرياح والسحاب والرعد والبرق ، ثم لا ينكر أيضـــا أثر هذه البيئة الطبيعية فى أبدان الناس وأثر الابدان فى النفس ..

▭

غاية الأمر أن بعض هــذه الاحداث ناشىء عن حسابات

بسيطة لحركات هذه الكواكب كخسوف القمر وكسوف الشمس وحساب المد والجزر ونحو ذلك ، وبعضها صعب الاستنتاج لصعوبة المشاهدات التى نبنى عليها احتمالنا · فان بعض الاوضاع للنجوم لا يتكرر مرة ثانية فى عمر الانسان الواحد،ومرة واحدة لا تكفى لحكم صحيح·وحساب الحادثة الواحدة تسبقها الى البروج كلها وتأثير كل منها حساب عسير ، فقد يحدث خطأ بسيط فى حساب برج من البروج فيخطىء التنبؤ

□

وعلى كل حال ، فقد شاعت بين الناس حوادث التنجيم والايمان بها · واستغل المنجمون الناس حتى الخلفاء ، وقد رووا أن المنصور تخير وقتا معينا لوضع الحجر الأساسى لبناء بغداد ، وتخير الفاطميون بعد ذلك وقتا مناسبا لوضع الحجر الأساسى للقاهرة · وليست حادثة المعتصم بعيدة عن الاذهان ، فقد نصح له المنجمون بالخروج الى الحرب أيام نضج التين والعنب حتى يكون النصر ، ولكن الحالة الحربية اضطرته الى الخروج فى غير هذا الوقت · فانتصر وقال أبو تمام فى ذلك قصيدته البائية المشهورة :

السيف أصدق أنباء من الكتب

فى حده الحد بين السيف واللعب

وكان الرشيد يؤمن بهذا التنجيم أحيانا ، ويستمع الى أخبار المنجمين وتنبؤاتهم ، حتى رووا أن منجما يهوديا قال للرشيد : «انى أرى فى أحكام النجوم أنك ستموت سريعا»

فاغتم لذلك اغتماما شديدا وأحضر جعفرا البرمكى ليسرى عنه • فحضر ووجده كئيبا حزينا ، فقال جعفر للمنجم : « أترى ان الخليفة يموت سريعا ؟ » • قال : « نعم » • قال له : « وماذا تراه فى نفسك ؟ » • قال : «أرى عمرى طويلا» • قال : « اقتله يا أمير المؤمنين حتى يتبين كذبه » فقتله ، واستراح الرشيد

ولقد كان هذا التنجيم وسيلة لعلم الفلك ، كما كان تحويل المعادن الى ذهب سببا فى تعرف قوانين الكيمياء الصحيحة • فقد رووا لنا أن محمد بن ابراهيم الفزارى صنع زيجا ، ورووا أنه قدم على الخليفة المنصور رجل من الهند عالم بالحساب المعروف بالسند هند فى حركات النجوم • وأمر المنصور بترجمة ذلك الكتاب الى اللغة العربية ، وأن يؤلف منه كتاب يتخذه العرب أصلا فى حركات الكواكب • وبذلك ابتدأوا العلم بكثير من التخريف ، وانتهوا به الى التصحيح والتدقيق

وظل أمر التنجيم الى اليوم فى التنبؤ بالسعادة لمن ولد فى شهر كذا ، والشقاء لمن ولد فى شهر كذا ، وفى اختلاف أخلاق من ولد فى بعض الشهور عمن ولد فى شهور أخرى ونحو ذلك

ولو كان هذا صحيحا ، لاطردت النتائج فيمن ولدوا فى شهر واحد من سعادة أو شقاء أو سلوك ، مع أنا نجد كثيرا من الفوارق بينهم •• ولكن هى طبيعة الانسان تريد أن

تخترق حجب الغيب ويستغل الدجالون غريزة الاستطلاع عند الناس والله أعلم

تقدم العلوم

ولتسرب هـــذه الثقافات المختلفة والعناصر المختلفة الى المسلمين ،ظهر أثر واضح هو تحول العلوم من أشـــكالها البسيطة الدائمة الى قواعد علمية ، وتســابق العلماء فى ذلك ، كل يريد أن يؤسس علما . وتشارك فى هذا العمل علماء من العرب كالخليل بن أحمد الفراهيدى ، وعلماء من الفرس كسيبويه وأبى حنيفة ، ومن الهنود كابن الاعرابى، وعلماء من المسلمين وعلماء من النصارى ، فكانت حــركة غريبة حقا . فهذا النحو يتحول من نظرات بدائيةومسائل جزئية كالتى تروى عن أبى الأســـود الدؤلى الى علم تام وقواعد منظمة ، كالذى كان من الخليل وتلميذه سيبويه

وهذا الفقه يتحول من مذهب مكون من جمع للحـــديث واستنتاج منه الى مذهب قيـــاسى منطقى كالذى يضـــعه أبو حنيفة وصاحباه أبو يوسف ومحمد

وهذه اللغة التى كانت تجمع كلمة فكلمة قد تم جمعها ، وأخذوا يضعون معاجم فى موضوعات خاصة كالخيل والابل . ثم جاء الخليل بن أحمد هذا ، فوضع بكتابه « العين » أساس المعاجم اللغوية . وهذا الأدب الذى كان يروى قصيدة أو قطعة قطعة ، أخـــذ يجمع فى الكتب المطولة كالمفضليات للضبى ، والاصمعيات للأصمعى ، والنقائض لأبى عبيدة

وهذا النقد الذى كان يعتمد على الذوق الفطرى ، فتنقد

الكلمة اذا كانت نابية مثل كلمة بوزع ـ أو ينقد المعنى اذا كان سخيفا ـ كقول القائل :

هذا ابن عمى فى دمشق خليفة   لو شئت ساقكم الى قطينا

فينتقده عبد الملك بأن هـذا يقال لعامل من عماله ، وأن الشاعر لو قال لو شاء ساقكم٠٠لكان أحسن ـ فينقلب الى نقد بقواعد وقوانين كالذى فعل ابن سلام فى طبقاته

وهذا التاريخ الذى كان يعتمد على مجرد جمع الاخبار حيثما اتفق ، يؤلف وينظم فيجعل لكل أمة موضعا ، ولكل أمة حوادث حسب السنين وما جرى فيها منظمة مرتبة

وهذه الانساب التىكانت فى الصدوركتبت فى السطور ودونت تدوينا منظما ، كالذى فعل الكلبى فىكتابه الجمهرة فى الانساب

وهؤلاء رجال المحدثين الذين كان يكتب عنهم كلمة فى تعديلهم أو تجريحهمكانت سببا فىكتب التراجم الواسعة، يعتمد فيها على الاخبار ومعرفة حياة كل مترجم له ونحو ذلك ، حتى لو قلنا ان كل طائفة من المعلومات انقلبت علما ووضعت فى قواعد ، لم نكن بعيدين عن الصواب ٠ فربما كانت معيشتنا فى القرون التى أتت بعد ، ليس الا ترداداً لما ذكروا أو تعبيرا عنـه بلغة العصور المختلفة ، أو تفريقاً لمجتمع أو تجميعا لمفترق من غير كثير ابتكار

يضاف الى ذلك اختلاف المذاهب والنحل وأخذها أيضا شـكلا علميا ، حتى ان المذاهب التى كانت سياسـية : كالمرجئية والخوارج وأهل السـنة والشيعة ، انقلبت الى مذاهب دينية علمية تعلل تعليلا علميا وتحلل تحليلافلسفيا

٠٠وتعددت المذاهب حسب العقليات ومقدار الثقافة والميول السياسية والدينية

فهذا حر العقل واسع التفكير يذهب مذهب الاعتزال وهذا يتقيـــد بالنص وينهج منهج الرواية والجمع فيكون محدثا ، وهذا يحب عليا ويترحم على ابنه الحسين ويعطف بقلبه على من اضطهد من العلويين فيكون شيعيا ، وهـــذا يحب أبا بكر وعمر ويمجـــد أعمالهما ويفضلهما عـلى على فيكون سنيا ، وهذا يميل الى منصب وجاه وتقرب الى الخلفاء بالمذهب فيكون عباسيا ، وهذا بدوى لا يحب الرياسة ولا يميل الى التأقلم ومتابعة الظروف فيكون خارجيا ، وهـذا يعتنق الاسلام ظاهريا والوثنية باطنيا ويكره العـرب عن صميم قلبه ويود رجوع دولة الفرس الى حالتها الاولى ،قبل أن يهزمهم العرب ويأخـذوا بلادهم فيكون وثنيا ٠ وهكذا وهكذا ٠٠ من تعدد المذاهب وتنوعها مما ليس له نظير فى مجتمع آخر



الأدب والأدباء



الأدب والشعراء

أوجدت العوامل التى ذكرناها فى الفصل السابق نشاطا عقليا غريبا وتناحرا بين الاديان المختلفة يشبه التناحر على العصبيات المختلفة وأخذ العلماء يشرحون أنواع الادب ، ويرون أن الأدب والنقد نتيجة لبيئات مختلفة .. فصبها العلماء فى العراق كلها صبا واحدا ، فمثلا كان أدب الحجاز غير أدب الشام غير أدب بغداد

كان أدب الحجاز بحكم تنحية الحجازيين عن السياسة فى أيام العهد الاموى وبحكم كثرة الغنائم وكثرة الفراغ مجالا للترف والنعيم،ولذلك كان رافع لواء ذلك الادب عمر بن أبى ربيعة ، وغزله ، ثم ما تبعه من مدرسته تعمل عمله وتنقده

وكان أدب الشام متأثرا ببيئته ، اذ كانت دمشق عاصمة الخلفاء يأتيها الناس من كل فج عميق للمديح ، وفيها التناصر السياسى . لهذا كان أغلب الشعر فيها مديحا وسياسة

وكان العراق على حدود البادية ، فكان الشعر فيها امتدادا للشعر الجاهلى ، وأنشأوا فيها المربد ، يتسابقون فيه الى الشعر كعكاظ ويتحلقون حول جرير والفرزدق ، فكان أدبهم من جنس الأدب الجاهلى هجاءا وفخرا واعتدادا بالعصيان ونحو ذلك ، فلما تحولت الحاضرة من دمشق الى بغداد فى العهد العباسى تغير الادب . فأخذ الأدباء العباسيون

يقفون فى بغداد موقف الأمويين من دمشق والعكس وكل الأدب الذى نتج من هذه البيئات صب جميعه فى العراق بفضل ما جمعه العلماء، فكان كل ذلك أدبا عربيا يتولاه النقد

ثم كانت الحياة الاجتماعية فى العصر العباسى حياة جديدة تخالف الحياة فى الحجاز والشام والعراق قبل العباسيين ، وكان لابد من زعماء جدد يشعرون بمواجهة الحياة الاجتماعية الجديدة. وهذا ما قام به بشار بن برد وأبو نواس وأمثالهم ، وكما تأثروا بالحياة الاجتماعية تأثروا أيضا بالثقافات المختلفة التى فشت فى عصرهم . فرأينا شعرا عن الاديرة ، وشعرا عن عيد النيروز ، وشعرا عن يوم الشعانين ، وشعرا عن الازهار الجديدة وغير ذلك . ولما ألبست زبيدة بعض الفتيات لبس الشبان ، أنشد أبو نواس شعر الغزل فى المذكر استجابة لهذه الدعوة

وحتى البيئات الخاصة كان لها أدب خاص ، فقد كان جزء من العراق يعيش فيه الخوارج .. فشعروا شعرا على مذهبهم ، وقال قائلهم :

أيها المادح العباد ليعطى   ان لله ما بأيدى العباد
فاسأل الله ما طلبت اليهم   وارج فضل المقسم العواد...
لا تقل فى الجواد ما ليس خيرا   وتسم البخيل باسم الجاد

وسموا أحد شعرائهم شاعر المؤمنين ، وشعراء الخليفة العباسى شعراء الكافرين .. فشعراء الخوارج يزنون الشعر بميزان الدين والاخلاق ، بينما ينزه شعراء الخلفاء والامراء بالميزان الفنى البحت ويجعلون امامهم الشعر الجاهلى والنزعات الداخلية

كل هذا صب فى العراق صبا ، وتعدد المقلدون حسب هذه المذاهب المختلفة ، فكان لنا العباس بن الأحنف يشبه عمر بن أبى ربيعة ، وأبو نواس يشبه الوليد بن يزيد الاموى، والخوارج الاخيرون يشبهون الخوارج الأولين وهكذا . .

التقدم اللغوى

وبلغت اللغة الذروة فىعهد الرشيد لنمو الثقافة والحضارة فى عهده . وقد كان هارون ظلها الظليل ، والمغدق علىالعلماء والشعراء والموسيقيين . ولقد أخذت علوم العربية فى عهده نهضة جديدة اقترنت بأسماء الاصمعى وأبى عبيدة وأبى زيد والفراء والكسائى ، وهؤلاء جميعا اتخذوا لغة البدو هى المثل الاعلى والنموذج الرفيع . وكانوا دائما يقاومون لغة العامة فى لحنهم حتى أنكروا على الفراء أنه لحن بمحضر الرشيد ، وانه اعتذر عن ذلك بأن اللحن عند سكان المدن لازم لهم كالأعراب عند أهل البادية

ولقد كان محببا الى الخليفة أن يجالس النحاة ويستمع الى جدلهم .. وكان يقدر سلامة اللغة حق قدرها ، ويدقق فيما لم يفهمه . فقد سمع الأصمعى يقول : « ما لاقتنى بعدك أرض » ، أى لم تمسكنى . فلم يرتح حتى استفسر عنها . وكان مما حبب زبيدة الى الرشيد فصاحتها وبلاغة أسلوبها ، كالذى رؤى لها من خطابها للمأمون عند ما قتل ابنها الأمين مما عد خير الكتب وأبلغها

وكان الرشيد دقيق الفهم للعربية حتى كان يستطيع أن يفرق بين ماذا قلت أنا قاتل غلامك على سبيل الاضافة بمعنى قتلت غلامك . وبين أنا قاتل غلامك بالتنوين على معنى

سأقتل غلامك . وكان يفـرق بين قولك أنت طالق طالق طالق . وقولك انت طالق وطالق وطالق ، مما يدل على دقة الذوق

وكان العلمـــاء اذا اختلفـوا فى شيء ، رجعوا الى البدو يستفسرونهم ويحكمون بينهم . وكانوا يصححون كثيرا مما يجرى من اللحن على السنة العوام . وقد نسبوا الى الكسائى كتابا فى لحن العامة عمله لهرون الرشيد ، وهو وان لم تكن نسبته صحيحة ، فانه يعد أقدم الآثار الأدبية فى تنقية اللغة العربية ، وهو يحتوى على نحو ١٠٢ غلطة من الغلطات التى تجرى على السنة العوام . وقد بلغت تنقية اللغة العربيـة هذه ذروتها فى لغة أبى نواس . نعم ، كانت تأتى فى شعره صيغ غريبة التصريف كتنويه سنون وبنون .. واستعماله أحيانا جمع المذكر السالم بكسر النون بدل فتحها . وأخـذ النحاة عليه قوله :

يا خـير من كان ومن يكون   الا النبى الطـاهر الميمون

فقالوا كان من الواجب نصب الا النبى . وأكثر من ذلك تركه الاعراب أحيانا واستعمال صيغ ماضية أحيانا ، وقوله فى بعض شعره يأتك بسكون الكاف على الوقف وقوله :

كأن صغرى وكبرى من فقاقعها   حصباء در على أرض من الذهب

فانتقدوا صغرى وكبرى . على أنه فيما يظهر يأتى بهذه الاشياء لا على أنها لحن بل يتعمدها تعمدا استصغارا لقواعد النحو . وكان فى امكانه تجنبها ، ولكنه كان يهزأ بالنحو كما يهزأ بالعرب . وعلى العموم كان من كثرة الاحتكاك بين البدو والحضر فى عهد الرشيد ومجادلات العلماء والمكافأة عليها بسخاء

منه ، وما منح من ذوق لغوى دقيق حتى أن الادوار الغنائية التى اختيرت له كانت كلها باللغة الفصحى

وفى عصر الرشيد رويت لنا بعض القوالب الشعبية كالتى تسمى المزدوجة . وهو قالب شـــعرى يؤلف فيـــه بيتان قصيران متحدا القافيـــة .. وقد نظم عليـــه ابو العتاهية أرجوزته المشهورة فى ذات الامثال . قالوا أنها تشتمل على أربعة آلاف حكمة ومثل لم يصلنا منهـــا الا جزء صـــغير ، واختار ابان بن عبد الحميد اللاحقى معاصر أبى العتاهيـــة نفس القالب المطابق للمثنوى الفـــارسى ، عندما نظم كليلة ودمنة وافتتحه بقوله :

هذا كتـــاب أدب ومحنـــــه وهوالذى يدعى كليلة ودمنه
فيه احتيالات وفيه رشـــد وهو كتاب وضعته الهنـــد

▭

وفى عهـــد الرشـــيد ظهر شـــاعر ثالث .. هو بشر بن المعتمر المعتزلى الذى زج به الرشيد فى السجن بعض الوقت لتشيعه. .اذ نهج نهجا لم يسبق اليه فى وضعه قصيدتين ، قالهما فى الاشادة بحكمة الله المتجلية فى الحيوان،وقد رواهما الجاحظ فى كتاب الحيوان ، الى غير ذلك .. كما ظهر فى عصر المأمون المواويل كما سنذكر . . . . .

على كل حال اختلطت هذه الثقافات كلها ، وصبت فى بغداد ، وتأثر بهما المسلمون الى حد كبير ، وكانت الزينـــة العقلية فى بغداد فى عصر الرشـــيد . واختلف النـــاس فى الاستفادة منها بمقدار عقولهم وظروفهم . هـــذا يميل الى

الفرس ، وهذا يميل الى الهند ، وهذا يميل الى اليونان ، وهذا يميل الى الرومان

دروس وتجارب

وبعد هذه المرحلة كان هناك من المسلمين من يصح أن يسموه كتاب دوائر المعارف مثل الجاحظ وأمثاله . وكانت هذه الثقافات سببا كبيرا من أسباب ازدهار الحضارة الاسلامية وحسن سمعة الرشيد . على أن للرشيد بجانب هذه الدروس العربية التى كان يتلقاها دروسا أخرى من النظام الفارسى كان يتلقاها باللغة العربية من يحيى بن خالد البرمكى والفضل بن يحيى ، وجعفر وأمثالهم . وكان يتلقى بالعربية من اليونانية عن جبريل بن بختيشوع طبه وفلسفته اذ كان الطب ملونا باللون اليونانى

وكانت هناك ثقافة تفوق ذلك كله ، وهى تجاربه فى الحياة مما كان يرى فى قصر أبيه ، وما كان يراه من الجوارى المختلفة الاجناس حوله ، ومن حروبه المختلفة . ومما كان يشاهده من أبيه المهدى أيام حروبه للزنادقة وامتحانه لهم ، وتوجيه التهم اليهم ومحاكمتهم . ومن الايام القاسية التى قاساها أيام كان أخوه الهادى يريد حرمانه من ولاية العهد وتولية ابنه

□

واذا كانت الحياة كلها دروسا ، فقد كانت دروسه كثيرة من كثرة ما لاقى وما شاهد وما سمع . وتمت تجاربه بعد

ان نكل بالبرامكة ، وتولى هو ما كان لهم من سلطان وما كانوا يحملون من تبعات ، وكان له ذوق فى الشعر حاد شديد ، وكان ذواقا يطرب للشعر فيجلس من اتكاء أو يقف من جلوس ، واذا كره شاعرا غضب منه غضبا شديدا ، وكان له مذهب خاص فى الشعر . يقول ابو الفرج الاصفهانى فى الأغانى ان منصورا النمرى ظفر بحظوته عند الرشيد لأنه عرف مذهبه فى الشعر . وهو ان يصل مدحه اياه بنفى الامامة عن ولد على والطعن عليهم ، وقد تعلم ذلك مما كان يبلغه من تقديم الرشيد لمروان بن أبى حفصة وتفضيله اياه على الشعراء فى الجوائز . فسلك فى ذلك مسلك مروان ونحا نحوه وذلك مثل قوله :

خلوا الطريق لمعشر عاداتهم   حطم المناكب كل يوم زحام
ارضوا بما قسم الاله لكم به   ودعوا وراثة كل أصيد حام
أنى يكون وليس ذاك بكائن   لبنى النبى وراثة الاعمام

الترجمة فى عهد الرشيد

وفى عهد الرشيد ، عنى العلماء أكثر مما كانوا من قبل بترجمة الكتب . ذلك انه بدات بشائر قليلة فى الترجمة فى عهد المنصور . فكان من جهة ممعودا يحتاج الى أطباء ليعالجوه ، ومن جهة أخرى كان ميالا الى التنجيم من كثرة ما خالط الشيعة . فلا يكاد يعمل عملا الا استشار فيه المنجمين .. لذلك عنى بالطب والنجوم . وقد كانت مدينة جنديسابور مشهورة بالطب من عهد كسرى . فاستقدم المنصور أحد أطبائها ، وحمله على أن يقيم معهدا ببغداد كمعهد جنديسابور . كان هذا الطبيب يعرف اللغة اليونانية

والسريانية والفارسية والعربية . فلما رأى المنصور يقربه نقل له كتبا طبية من اليونانية غير التى الفها باللغة السريانية. وعكف الناس على هذه الكتب ، وقد قالوا ان ابن المقفع نقل أيضا من كتب الفرس الى العربية كتبا فى المنطق والطب . كان الفرس قد نقلوها من اليونان

فلما جاء المهدى كان الناس قد نضجوا بعض النضج فى الترجمة بفضل ما وضع فى عهـد المنصور . ولـكنه شغل بحركة الزندقة ، لان المترجمين لم يقتصروا على ترجمة كتب الطب والتنجيم وغيرها ، بل ترجموا أيضا كتب الزنادقة . فلما فشت الزندقة فى أيامه ، تفرغ لها وقتل من اعتنقها من جهة. وأمر المتكلمين من جهة أخرى بالرد عليهم ؛ وخصوصا المعتزلة

وقد كانت نزعة الرشيد أقوى وزمنه أهدأ . وماله أكثر خصوصا وقد توافد على بغداد كثير من العلمـاء العارفين باللغات من السريان والفرس والهنود والروم . وكان منهم من تعلم اللغة العربية لانها اللغة الرسمية للدولة . فحملهم على ترجمة الكتب ، وقد توسعوا فى الترجمة وترجموا غيرها من فروع الفلسفة .. اذ كان الطب والتنجيم يعدان فرعين من فروعها ، بجـانب المنطق وما وراء الطبيعـة والطبيعة وغير ذلك

▭

وكان الرشيد فى حروبه الكثيرة مع البيزنطيين ، يفتـح بلادا ومدنا تحتوى كتبا يونانية ورومانية كثيرة ، فلم يكن يحرقها أو يبددها . بل ينقلها الى بغداد فى عنـاية .. من

ذلك انه عثر اثناء حروبه فى انقرة وعمورية على كثير من الكتب ، فحملها الى بغداد وامر طبيبه يوحنا ابن ماسويه بترجمتها الى العربية . كما أمر الحجاج بن مطر بترجمة كتاب أقليدس فى الهندسة . وكانت ترجمته الى العربية هذه لاول مرة ، ثم ترجم فيما بعد ترجمة ثانية . وميزوا الاولى بأن اطلقوا عليها الترجمة الهارونية نسبة الى هارون الرشيد

وشاركه العظماء فى ذلك ، فيحيى بن خالد البرمكى أمر أيضا بترجمة كتاب المجسطى ، ثم جاء بعد ذلك المأمون فاستغل ما ترجم قبله وزاد عليه كثيرا . والناس على دين ملوكهم .. فلما رأوا المأمون يميل الى ترجمة الكتب وينفق على ترجمتها عن سخاء اتبعوا مذهبه . وقد ساعده على ذلك نضوب الحركة التى بدأت قبله ، كما ساعده أيضا وجود جماعة من احرار الفكر من المعتزلة حوله كأبى الهذيل العلاف والنظام

وقد أبلى بلاء حسنا فى هذه الترجمة السريانيون .. فقد كانوا اكثر اتصالا بالفلسفة من قبل العرب . وكانوا قد نقلوا كثيرا من الكتب اليونانية الى اللغة السريانية . وكانوا يعلمون اللغة اليونانية فى مدارسهم واكثرها فى العراق . فلما انتقل كرسى الخلافة الى بغداد ، ورأوا حاجة المتكلمين العربية الى هذا العلم حولوا ما نقلوا من السريانية الى العربية طلبا للرزق ، وحبا فى التقرب الى الناطقين بالعربية

حدة مزاج الرشيد

ولقد كان الرشيد مثقفا ثقافة واسعة ، وكان كبير

العقل عالى الهمة كريم النفس .. ولكنه من ناحيته العاطفية كان حاد المزاج ، يكون فى مجلس وعظ ودين فيتدين ويفرط فى التدين ، ويصلى مائة ركعة فى اليوم ، ويحج ماشيا . ويكون فى مجلس غناء أو شراب فيملكان عليه قلبه ، ويرضى عن البرامكة فلا حد لرضاه . ويغضب عليهم فلا حد لغضبه . ويعفو حتى ليظن الظان انه لا يعاقب ، ويحلم حتى يعفو فى مواضع العقاب ، ويغضب فيخاف من حوله من الحديث معه ، كالذى روى أنه لما عاد من حروب الروم بلغه ان نقفور نقض العهد الذى عهده،فخاف وزيره من القاء الخبر عليه . فأوعز للشعراء ان يخبروه بالخبر،فقال عبد الله بن يوسف :

نقض الذى اعطيته نقفور	فعليه دائرة البوار تدور
أبشر أمير المؤمنين فانه	غنم أتاك به الاله كبير
فتح يزيد على الفتوح مؤيد	بالنصر فيه لواؤك المنشور
فلقد تباشرت الرعية ان أتى	بالغدر منه وافد وبشير
ورجت يمينك ان تعجل غزوة	تشفى النفوس مكانها مذكور
نقفور انك حين تغدر ان نأى	عنك الامام لجاهل مغرور
أظننت حين غدرت انك مفلت	هبلتك أمك ما ظننت غرور

وقال ابو العتاهية :

تجلبت الدنيا لهرون بالرضى	واصبح نقفور لهرون ذميا

وقال غيره :

لجت بنقفور اسباب الردى عبثا	لما راته بغيل الليث قد عبثا

فلما علم بذلك عاد من وقته يحاربه،وهكذا العاطفة الحادة تكون كجو امشير : هادئة فى لحظة ، ثائرة فى لحظة . .. ..

حظه أكبر من صفاته

وربما كانت شهرته أكبر منه وحظه اكبر من صـفاته ، ولكنها الدنيا اذا أقبلت على أحد وهبته محاسن غيره ، واذا أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه ؛ والحق ان العشرة الاولين من الخلفاء العباسيين كانوا كلهم عظاما اذا استثنينا الأمين . وكان لكل منهم ميزة فى تأسيس الدولة العباسـية ورفع شأنها .. ولكن لم ينل أحد من الحظ ما نال الرشيد. وحتى الامين لا نستطيع أن نصدق كل ما روى عن بلاهته وغفلته. فقد وضع عليـه القصاصون حـكايات كثيرة لا تتفق مع ترشيحه للخلافة فى ذلك العصر ، ومع تربيته تربية دقيقة رباه بها الرشيد

ولكن المؤرخين دائما مولعون بالاستهانة بمن سقط فى الميدان، واعلاء شأن من نجح فيه . ولو كان الامين قد تغلب على المأمون ، لانعكست الآية من عصر الى عصر .. خصوصا وان التاريخ الاول للامين وضع فى عهد خصمه المأمون وانتقل بعد ذلك

مأساة البرامكة



البرامكة

وقد حمل اعباء الخلافة عن الرشيد فى أول عهده البرامكة فكان يرجع اليهم فى كل أمر ، ويحملون التبعات فى كل شأن . . واتسع سلطانهم وعلا شأنهم ، وقصدهم جميع الشعراء بالمدائح . وكانوا من حسن السياسة ما حببهم الى الرعية ، وكل من هذه الأسرة اتخذ له صنائع بما غمرهم من أموال

والبرامكة هؤلاء ينتسبون الى برمك . وبرمك هذا كان كاهن بيت النار فى مدينة بلخ المسمى النو بهار . وهو معبد للديانة الزرادشتية . وكانت هذه الديانة مملوءة بالطقوس المعقدة وبالسحر وبالأسرار . فلما انتقلوا الى الاسلام لم تخل صدورهم من آثار هذه العقيدة

ولمرانتهم على النظم الفارسية الدقيقة ، خدموا المدنية الاسلامية خدمة كبرى بما نقل اليهم ولهم من كتب الفرس القديمة وعاداتهم وتقاليدهم ، كالتى نقلها الجاحظ فى كتاب التاج

ووضعوا أيديهم على مال الدولة كله . . حتى كان من شأنهم اذا أرادوا أن يتصرفوا فى شىء منه ، وجدوه تحت أيديهم . واذا اراد الرشيد وقصره أن يتصرف رجع فى ذلك اليهم . وكان أول من ظهر منهم فى الاسلام خالد البرمكى ، وعلا شأنهم فى عهد الرشيد على يد يحيى بن خالد

ثم كان ان دخل فى القصر عدوهم اللدود الفضل بن الربيع . وقد جهدت الخيزران فى ابعاده عن القصر . وهو رجل نشأ على الدس وأعمال الحيلة .. وورث الدس عن ابيه الربيع ، فقد كان الربيع سببا فى أن يقتل المنصور ابا أيوب المورياني . وقد جاء القصر فوجد البرامكة قد وضعوا أيديهم على كل شيء فى الدولة

فكيف الخلاص منهم ، والرشيد ؟نفسه خاضع لارادتهم ؟ ولكن لا بأس .. فليعمل الفضل الحيلة فى اغضاب الرشيد عليهم . وكان الفضل شديد الكبر شديد الغيرة من البرامكة، لا يبلغ مبلغهم فى علم ولا نبل ولا فضل.. فحسدهم وتمنى زوال نعمتهم . فكان يوما يدس الى الرشيد أن البرامكة يعملون للوصول للخلافة . ويوما يدس اليه أن البرامكة ملاحدة وثنيون ، يحنون الى دين أبيهم القديم بدليل أن قصورهم فيها مخابيء تحت الارض ، تحوى الشعائر القديمة الزرادشتية فهم يتعبدون فيها خفية عن الناس ؛ ويوما يحذره من البرامكة بأنهم يؤيدون العلويين سرا ويودون نقل الخلافة اليهم . ويوما يوعز الى مغن أن يغنى الرشيد بهذين البيتين :

ليت هندا أنجزتنا ما تعد   وشفت انفسنا مما تجد
واستبدت مرة واحدة   انما العاجز من لا يستبد

ويوما يوعز الى من يرسل اليه قصيدة من غير توقيع يقول فيها :

هذا أبو يحيى قد غدا مالكا   مثلك ما بينكما حد
أمرك مردود الى أمره   وأمره ليس له رد

وهكذا وهكذا من اساليبه الخفيــة الشريرة تعاونه على ذلك السيدة زبيدة زوجة الرشيد بأحاديثها فى الليــل مع زوجها ، والطعن على البرامكة . وقد كانت تكرههــم وتود زوال سلطتهم حبا فى الرشيد ورجوع السلطة اليه واليها

نكبة البرامكة

فلما اعتزم الرشيد أن ينكب البرامكة ، كان قد قرر بعد طول التفكير أن لا يظهر ذلك لأحد . . هادى جعفر بن يحيى كالمعتاد وسلم عليه ، فرد الســلام أحسن رد ورحب به ، وضحك فى وجهه ، وأجلسه فى مرتبته . وكانت مرتبتــه أقرب المراتب إلى أمير المؤمنين ثم حدثه وضاحكه . فأخرج جعفر الكتب الواردة عليه من النواحى فقرأها عليــه وأخذ رأى الرشيد فيها وقضى حوائج الناس ، ثم استأذنه جعفر فى الخروج الى خراسان فى يومه هذا ، فدعا الرشيد بالمنجم كالعادة . فقال المنجم : هذا يوم نحس ، وهذه ساعة نحس ، ولا يبعد أن يكون الرشيد اتفق مع المنجم على ذلك ليصده عن السفر

ومع ذلك ، فكان جعفر يعلم أيضا شيئا من التنجيم . فأخذ الارسطرلاب من يد المنجم ، وقام وحسب النجــوم فرآها حقــا ســاعة نحس ، ثم قام وانصرف الى منزله . والناس والقواد والخاصة والعامة يعظمونه من كل جانب الى ان وصل الى قصره فى جيش عظيم . فلم يستقر به المجلس حتى بعث اليه الرشيد مسرورا الخادم ، وقال له : « امض الى جعفــر وائتنى به الســاعة ، وقل له وردت كتب من

خراسان والخليفة يريد رأيك فيها ، فاذا دخل الباب الاول فأوقف الجند ، واذا دخل الباب الثانى فأوقف الغلمان ، واذا دخل الباب الثالث فلا تدع احدا يدخل عليه من غلمانه. بل يدخل هو وحده ، فاذا دخل صحن الدار ، فمل به الى القبة التركية ، ثم اضرب عنقه ، وائتنى براسه

ولاتوقف احدا من خلق الله على ما امرتك به ، ولاتراجعنى فى أمره . وان لم تفعل أمرت من يضرب عنقك » . فمضى مسرور واستأذن على جعفر ودخل عليه وقد نزع ثيابه يستريح ، فقال له : « يا سيدى ، أجب أمير المؤمنين » . فانزعج ، وقال : « ويلك يا مسرور ، أنا خرجت من عنده فى هذه الساعة فما الخبر ؟ » . قال : « وردت كتب من خراسان تحتاج الى النظر السريع » .. فطابت نفسه ، ودعا بثيابه فلبسها وتقلد سيفه وذهب معه .. وفى قلبه بعض الشك

فلما دخل من الباب الاول أوقف مسرور الجند . وفى الباب الثانى أوقف الغلمان ، فلما مر من الباب الثالث التفت فلم ير احداً من غلمانه . فندم على ركوبه وزاد الخوف فى نفسه . وأدخل القبة ، فقال لمسرور : « ما الخبر ؟ ! » . قال له : « قد أمرنى أمير المؤمنين بضرب عنقك وحمل رأسك اليه الساعة» . فبكى جعفر وجعل يقبل يدى مسرور ويقول : « قد علمت كرامتى لك دون جميع الغلمان . وانت تعرف موضعى ومحلى من أمير المؤمنين . فلعل أمير المؤمنين أن يكون قد بلغه عنى باطل فدعنى أهيم على وجهى » . فقال : «لاسبيل الى ذلك » . . قال : «فاحملنى اليه واوقفنى بين يديه ، فلعله



وقال مسرور لجعفر : « قد أمرنى أمير المؤمنين بضرب عنقك ... »

اذا وقع نظره على أن تدركه الرحمة فيصفح عنى » . قال : « لا سبيل الى ذلك أيضا » . قال : « فتوقف عنى ساعة وارجع اليه وقل له : قد فرغت مما أمرتنى به » . فقبل منه ذلك بعد أن حل سيفه ومنطقته وأخذهما . ومضى مسرور ووقف بين يدى الرشيد ، فرآه غاضبا أشد الغضب. فلما رآه قال متلهفا : « ماذا فعلت بأمر جعفر ؟ » . قال : « يا أمير المؤمنين ، انفذت أمرك فيه » . قال الرشيد : « فأين راسه ؟ » . قال : « فى القبة » . قال : « فأتنى براسه الساعة »

فرجع مسرور وجعفر يصلى فسل سيفه الذى اخذه منه ، وضرب عنقه ، واخذ راسه بلحيته وطرحه بين يدى أمير المؤمنين . فتنفس الصعداء لأنه انفذ تدبيره الذى احكمه . وبكى بكاء شديدا على الصداقة الوثيقة التى كانت بينهما . وجعل ينكث الارض . وقبض على أبيه وأخيه وجميع أولاد البرامكة ، وغلمانهم ومواليهم . واستباح ما عندهم ووجه مسرورا الى المعسكر فأخذ جميع ما فيه من مضارب وخيام وسلاح ، وقد أحصوا من قتله الرشيد من غلمانهم ومواليهم بنحو الف انسان . وأمر ان لا يرجع أحد من صنائعه الى وطنه خوف أن يشبوا ثورة ، وشتت شمل من بقى فى البلاد

واتى بصبيين كانا ولدى جعفر وكانا حسنين جميلين . فاستنطقهما فوجدهما فصيحين يتكلمان بلغة مدنية جميلة ، وينطقان بفصاحة هاشمية . ثم أمر بضرب عنقهما ، وامر أن لا تذكر البرامكة فى مجلسه . ولا يستعان بمن بقى منهم

فى بغداد . ولكن زبيدة والفضل بن الربيع وغيرهما ، لم يطمئنوا الى ذلك ويحيى باق والفضل يعيش . فاذا خرجا من السجن ، فربما دبرا الانتقام ممن كان السبب . فدسوا - وخصوصا زبيدة - ورقة تحت مصلى الرشيد وفيها مدح للرشيد على عمله مع البرامكة ، وتحريض على المضى فى هذه السبيل الى آخرها . فشدد على يحيى وكان شيخا كبيرا وزاد فى حديده واغلاله . وأحضر الفضل وضربه سياطا حتى كاد أن يهلكه

▭

وتذكر يحيى مرة صلته القديمة بالرشيد فكتب اليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم .. الى امير المؤمنين ، ونسل المهديين ، وامام المسلمين ، وخليفة رسول رب العالمين . من عبد أسلمته ذنوبه وأوقعته عيوبه ، وخذله شقيقه ، ورفضه صديقه ، وخانه الزمان ، وأناخ عليه الخذلان ، ونزل به الحدثان .. فصار الى الضيق بعد السعة ، وعالج الموت بعد الدعة ، وشرب كأس الموت مترعة ، وافترش السخط بعد الرضا ، واكتحل بالسهر بعد الكرى

« يا أمير المؤمنين .. قد أصابتنى مصيبتان : الحال والمال . أما المال فمنك ولك ، وكان فى يدى عارية منك ولا بأس برد العوارى الى أهلها . وأما المصيبة بجعفر فبجرمه وجرأته ، وعاقبته بما استخف من أمرك . وأما أنا فاذكر خدمتى ، وارحم ضعفى ووهن قوتى . وهب لى رضاك ، فمن مثلى الزلل ومن مثلك الاقالة . ولست أعتبر .. ولكنى أقر

« وقد رجوت ان افوز برضاك . وتقبل عذرى وصدق نيتى ، وظاهر طاعتى . ففى ذلك ، ما يكتفى به أمير المؤمنين ويرى الحقيقة فيه ويبلغ المراد منه »

فوقع الرشيد على هذا الخطاب بالآية الآتية : « بسم الله الرحمن الرحيم ـ وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » فيئس يحيى وظل فى السجن حتى مات .. ولئن كانت هذه الرواية أشبه أن تكون موضوعة فهى تمثل الحال تمام التمثيل ...

□

وقد يكون الفضل بن الربيع والرشيد معذورين فى بعض ذلك ، لأنهما رأيا أن الدولة العربيـــة تزول شيئا فشيئا ـ حتى لم يبق للعرب فى المملكة سلطان ، وأن السلطة تزيد فى الفرس يوما فيوما حتى قبض البرامكة على كل ما للدولة من شئون

قد يضاف الى ذلك ما يروى بعض المؤرخين من أن الرشيد كان لا يستغنى عن جعفر والعباسة ، فعقد له عليهـــا حتى يحل اجتماعهما ، وأمر جعفراً أن لا يمسها . فتعهد له بذلك ، ثم طغى عليهما سلطان الغرام . ولسنا نذهب الى ما ذهب اليه ابن خلدون من استبعاد هذا . فهـــذه عاطفة انسانية يقع فيها الشريف والوضيع والغنى والفقير . وكم سمعنـــا بمثل ذلك فى كل العصور ، وسلطان الحب فوق كل سلطان . انما نستبعد ذلك من ناحية أخرى ، وهى أن هـــذا لو كان

السبب .. لفتك الرشيد بجعفر البرمكى وحده دون يحيى الشيخ ودون اخوة جعفر

فلا بد ان يكون السبب مشتركا ، ولسنا نجد سببا مشتركا الا حيازتهم للسلطة ، خصوصا وأن مسرورا الخادم قد سأله بعض الخلفاء بعد ذلك عن حادث جعفر والعباسة . فنفاها نفيا باتا ، ولمح الى ان السبب هو السلطة . وقد كان الرشيد تنازل لهم عن كل سلطان ، فولى جعفر الغرب كله من الأنبار الى افريقية . وقلد الفضل المشرق كله من النهروان الى أقصى بلاد الترك . وهما يتيبان عنهما من أراداً .. والناس اذا رأت السلطان فى يد توجهت اليها بالاستجداء والمديح والملق ، وكذلك كان شأن البرامكة .. فكان الشعراء يقفون ببابهم أكثر من الشعراء الذين يقفون على باب الرشيد ، وقد منح البرامكة سماحة وكرما. وصفهم ابراهيم الموصلى فقال : « أما الفضل فيرضيك بفضله . وأما جعفر فيرضيك بقوله . وأما محمد فيفعل بحسب ما يجد . وأما موسى فيفعل ما لا يجد » . وكما أسروا الناس بحسن صنيعهم أسروهم ببلاغتهم ومأثور كلامهم ، وحسن توقيعهم حتى تناقلت كتب البلاغة عباراتهم

اشاعات مغرضة

وقد فكر الرشيد طويلا فى الايقاع بهم لعظم مكانتهم ، وخوفه من الثورة عليه من أجلهم ، فكان مما احتاط أن يشيع بين الناس كفرهم وزندقتهم ، وانهم يظهرون الاسلام ويبطنون الكفر ، وان عندهم بعض بقايا من الآثار الوثنية

ونحو ذلك حتى تكرههم العامة . فاوعز مثلا الى الاصمعى ان يقول فيهم ما يحط من شأنهم كالذى قال :

اذا ذكر الشرك فى مجلس اضاءت وجوه بنى برمك
ولو تليت بينهم آية اتوا بالأحاديث عن مزدك

واشاع فى الناس أنهم زنادقة حتى ان يحيى بن خالد لما نقل من سجن الى سجن ، اعتدى عليه رجل واظهر له الاحتقار فخاف يحيى أن يكون قد ظلمه ، أو بخل عليه .. فبعث اليه من يسأله . فلما علم أنه يرميه بالزندقة اطمأن الى ذلك لأنه علم أنها دسيسة عليه . وبذلك وأمثاله أوجد الرشيد حول البرامكة جوا مسمما

وربما كان من ذلك ما أشاعه عن علاقة جعفر بالعباسة وعد جعفر للرشيد ، بأن لا يقربها لأنه الى ذلك العهد كانت الغيرة فاشية فى الناس . فلما نكل بهم الرشيد لم يثر الناس وقابلوا الأمر بالهدوء

ولولا نشاط الدعاية ضدهم لثار الناس على الرشيد وفتكوا به ان استطاعوا . وكان يحيى البرمكى يحذر هذه النتيجة ويعمل على قصر سلطان جعفر . فقال للرشيد غير مرة : « يا أمير المؤمنين . اننى أكره مداخل جعفر . ولست آمن أن ترجع العاقبة على فى ذلك منك . فلو اعفيته واقتصرت على ما يتولاه من جسيم أعمالك ، لكان أحب الى وأولى بتفضلك » فلم يقبل الرشيد هذا . وكثيرا أيضا ما كان يحيى يقول : « الحكيم من توقع الشر » ويقول : « لا أرحام بين الملوك وبين احد » خصوصا وانه علم ان الرشيد يصغى الى الفضل بن الربيع

وقد أحكم الرشـيد فعلته ونشر الجواسيس يتجسسون على من يمدحون البرامكة ويبكون عليهم . ويقطع راس من بلغه شيء عنه ، حتى خشى الناس وانكروا الصنيع واسدل الستار على هذه القتلة الشنعاء .. هذا فى نظرى اهم سبب لقتل البرامكة وهو غيرة الرشيد من سلطانهم وتحكمهم فيه ، وعلو شأنهم على شأنه . اما ما عداه من الاسباب فأسباب ثانوية . وقد أولع المؤرخون ان يجعلوا لكل شيء كبير سببا واحدا ، فلا بد أن يكون لغضب الرشيد على البرامكة سبب واحد . واذا كان أبو العلاء المعرى فى شعره كافرا احيانا مؤمنا احيانا ، فلا بد ان يكون كافرا فقط او مؤمنا فقط . فلذلك وقعوا فى العناء والأخطاء . وماذا يجرى للدنيا لو كانت هناك أسباب مختلفة تنتج سببا واحدا . فقد عمل على اسقاط الدولة الأموية أسباب عديدة . وأبو العلاء بكل بساطة مؤمن حينا ، كافر حينا . شأنه فى ذلك شأن أكثر العقلاء فى الحياة، يرون من مظاهر الدنيا ما يحملهم على الكفر أحيانا ويرون منها ما يحملهم على الدين احيانا . بل حكى لنا الغزالى فى كتابه « المنقذ من الضلال » انه آمن ايمان العجائز أحيانا . وشك احيانا . وآمن بالكشف أحيانا . فلم لا تكون نكبة البرامكة ناتجة من جملة أسباب لا سبب واحد ، اولها : غيرة الرشيد من سلطانهم، وثانيها: عطفهم على العلويين ، وثالثها: علاقة جعفر بالعباسة الى غير ذلك . على أنه ما يدرينا لعل الرشيد نشر فى الناس علاقة جعفر البرمكى بأخته ليستثير كره الناس لهم ويستخرج غضبهم ومقتهم . والا فلو نظرنا الى المسألة بالعين العادية لم نجد فيها محلا للغضب والمقت ،

حتى ولو صح ، فما فى هذا مأخذ على شاب يألف زوجته ويتصل بها

قاتل الله السياسة

وليس قدر جعفر ولا أصوله بأقل من قدر الرشيد نفسه وأخته ، الا أن الرشيد فخور بعربيته .. وجعفرا فخور بفارسيته . والرشيد فخور بابن عباس .. وجعفر فخور بجده برمك. والاسلام يقول : « انأكرمكم عند الله أتقاكم ». ولا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى . ولو خطب الرشيد لأخته ما عثر على مثل جعفر . ولكنها السياسة أرادت أن تكره الشعب فى البرامكة فاخترعت لها اختراعات متعددة من مثل هذا الزواج الذى ليس فيه ما يؤخذ عليه . ورميهم البرامكة بالزندقة ونحو ذلك .. وكلها خوفا من الناس أن يثوروا على الرشيد لفتكه بقوم عدول فى حكمهم كرماء لقصادهم ، محبين لمن يتصل بهم .. وقاتل الله السياسة !

□

على كل حال غضب الرشيد عليهم من كثرة ما سمع من الفضل بن الربيع ومن زبيدة وأنصارهما ، ونوى أن يسلبهم سلطانهم ويسترد تصرفه كما يشاء . وأخذ يستشير غيرهم من مثل يزيد بن مزيد الشيبانى وهرثمة بن أعين ، فأخا الرشيد يتغير قلبه على البرامكة ويستقبح منهم ما ك يستحسن . فحدثنا الجهشيارى أن الرشيد سمع مر ضجة شديدة ، فقال : ماهذا ؟ فقيل له : يحيى بن خاله

ينظر فى امور المتظلمين . فدعا له الرشيد وقال : « بارك الله فيه واحسن جزاءه .. فقد خفف عنى وحمل الثقل دونى ، وناب منابى » . ثم ذكره ذكرا جميـلا .. وامن الحاضرون على قوله وزادوا فى ذكر محامده

هذا ايام الرضا .. اما حين تغير قلبه فقد ارتفعت ضجة شديدة كتلك ، فقال الرشيد : ما هذا ؟. فقيل : يحيى بن خالد ينظر فى امور المتظلمين .. فذمه وسبه وقال : « فعل الله به وفعـل .. استبد بالأمور دونى وامضاها على غير رأيى ، وعمل بما احبه دون محبتى . فأمن الحاضرون على رأيه وزادوا فى ذكر المساوىء

ودخل يحيى مرة اخرى على الرشيد وهو خال ؛ فانتظر قليلا .. فلم يفتح له حديثا فاستأذن وخرج. فقال الرشيد لبعض الخدم : الحق بيحيى .. فقل له : «خنتنى فاتهمتنى». فقال للرسول : « تقول له يا امير المؤمنين ، اذا انقضت المدة كان الحتف فى الحيلة .. ووالله ما انصرفت عن خلوتك الا تخفيفا عنك »

□

ومما يؤيد رأينا فى ان السبب الأكبر فى نكبة البرامكة غيرة الرشيد منهم ، وحبه لاسترجاع سلطانهم واموالهـم .. ما رواه الجهشيارى من ان يحيى لما احس من الرشيد تغيره عليه ، ركب الى صديق له من الهاشميين . فشاوره فى هذا الموقف . فقال له الهاشمى : ان امير المؤمنين قد احب جمع المال وقد كثر ولده .. فأحب أن يجمع لهم الضياع ، فلو

نظرت الى ما فى أيدى اصحابك من ضياع واموال فجعلتها لولد امير المؤمنين وتقربت بها اليه رجوت لك السلامة

فهذا يدل على أن من اكبر اسباب غضب الرشيد على البرامكة أيضا حسده لهم وطمعه فى أموالهم ...

وليس المال يقصد لذاته ، وانما يقصد للسلطان والعظمة.. فاذا طمع الرشيد فى مالهم فطمعه فى سلطانهم اشد ، وهذا يؤيد ما ذهبنا اليه ، خصوصا وان الرشيد قد كبر وفهم المسئولية وقدر عليها فأراد أن يزحزحهم عن سلطانهم ويحل محلهم

وقد أخذ الرشيد من كل ما فكر وشاور يقضى على البرامكة قضاء شنيعا . فقتل بعضهم وسجن بعضهم الى أن يموت ، وقتل من تولاهم من الشعراء ومن كان يقف ببابهم . وتنتهى بذلك دولة البرامكة ، ويسترد الرشيد سلطانه ويعيد الى نفسه سلطانهم وعظمتهم

الناس قسمان !

والناس فى كل زمان ومكان ينقسمون الى قسمين : قسم وهم الأغلب يميلون مع الريح كيف تميل ، لهم قدرة على شمها من اين تأتى . فهم يتجهون معها كلما هبت من ناحية . لا بأس أن يتجهوا فى الصباح اتجاها وفى المساء اتجاها آخر مناقضا ، لا يحركهم الا ترقبهم لمصلحتهم الشخصية . فاذا قال رئيسهم أسود قالوا اسود .. واذا قال ابيض قالوا ابيض لايقمعهم ضمير ، ولا تصدهم اخلاق. وقسم ، وهو القليل ، وفى ثابت على مبدأ .. يحتمل العذاب

فى سبيل ثباته ، ليس عبدا للمال ولكنه عبد للضمير

وقد كان هذا شأن النـاس مع البرامكة .. فمنهم من جحد فضلهم وانقلب عليهم ، بمجرد أن احسـوا غضب الرشيد عليهم أو تملقا للفضل بن الربيع لأنه كان يتوقع انتصاره كالذى يقول :

قل للخليفة ذى الصنا ئع والعطـايا الفاشـيه
وابن الخلائف من قريـش والملوك العاليـه
راس الأمور وخير من ساس الأمور الماضيه
ان البرامكـة الذيـن رموا لديك بداهيـه
عمتهـم لك سقطـة لم تبق منهم باقيـه
فكأنهـم ممـا بهـم أعجاز نخـل خاويه
صـفر الوجوه عليهـم خلع المـذلة بادية
مستضعفون مطـردو ن بكل ارض قاصـيه
ومنـازل كانوا بهـا فوق المنـازل عاليـه
اضـحوا وكل مناهم منك الرضا والعافيـه

وكالذى يقول على لسان الرشيد :

يا آل برمك انكـم كنتم ملوكا عاتيـه
فعصـيتم وطغيتم وكفـرتم نعمائيـه
اجرى القضاء عليكم ما ختنموه علانيـه
من ترك نصح امامكم عنـد الأمور البـاديه

اما الآخرون فكالذى يقول :

ان البرامكـة الـكرام تعلمـوا
فعـل الـكرام فعلمـوه النـاسا

كانوا اذا غرسوا سقوا واذا بنوا
لم يهدموا مما بنوه اساسا
واذا هم صنعوا الصنائع فى الورى
جعلوا لها طول البقاء لباسا

ومن هذا القسم الثانى ما روى عن ابى زكار الأعمى ، وكان شاعرا مغنيا . وقد ذكروا أنه كان منقطعا للبرامكة يشعر فيهم ويغنيهم .. وكم بكى على مقابرهم بعد موتهم . وقد روى الأغانى أنه لما أمر الرشيد بقتل جعفر بن يحيى ، دخل عليه مسرور الخادم فوجد عنده أبا زكار الأعمى وكان يغنيه بالأبيات الآتية :

فلا تبعد فكل فتى سيأتى عليه الموت يطرق او يغادى
وكل ذخيرة لا بد يوما وان بقيت تصير الى نفاد
وهل يغنى من الحدثان شىء فديتك بالطريف وبالتلاد

فلما أراد أن يقبض على جعفر قال له أبو زكار : «ناشدتك الله الا ألحقتنى به » . فقال له مسرور : « وما رغبتك فى ذلك ؟ » . فقال : « انه اغنانى عمن سواه باحسانه فما أحب ان ابقى بعده » . وحكى مسرور ذلك للرشيد فقال : « هذا رجل فيه مصطنع ، فاضممه اليك فانظر ما كان يجريه عليه جعفر فأتممه له » . وهى رواية تخالف بعض الشىء الرواية السابقة فى مقتل جعفر

كما كان من الأوفياء كثير من الصالحين والشعراء. فيروون انه لما بلغ سفيان بن عيينة الامام المشهور خبر جعفر وقتله وما نزل بالبرامكة ، حول وجهه الى القبلة وقال : « اللهم انه كفانى مؤنة الدنيا ، فاكفه مؤنة الآخرة »

ورثاهم كثير من الشعراء ، فقال الرقاش :

هدأ الخالون من شجو فناموا
وعينى لم يلامسها منام

وما سهرى لأنى مستهام
اذا ارق المحب المستهام

ولكن الحوادث أرقتنى
فلى سهر اذا هجد النيام

اصبت بسادة كانوا نجوما
بهم نسقى اذا انقطع الغمام

على المعروف والدنيا جميعا
لدولة آل برمك السلام

فلم ار قبل قتلك يا ابن يحيى
حساما فله السيف الحسام

أما والله لولا خوف واش
وعين للخليفة لا تنام

لطفنا حول جذعك واستلمنا
كما للناس بالحجر استلام

وقال دعبل الخزاعى :

ولما رايت السيف صبح جعفرا
ونادى مناد للخليفة يا يحيى

بكيت على الدنيا وايقنت أنما
قصارى الفتى فيها مفارقة الدنيا

وقال صالح بن طريف :

يا بنى برمك واها لـكم ولأيام لـكم مقتبـلـه
كانت الدنيا عروسا بكم وهى اليوم شلول ارمله

□

وقد صودرت أموالهم وأصبح من لم يقتل منهم يستجدى وشوهدت أم جعفر تستجدى غنيا يوم الأضحى فسألها عن حالها ، فقالت : « والله لقد جاء على يوم مثل هذا وعندى أربعمائة وصيفة وأنا أستقلهن وأذبح الذبائح الكثيرة وأوزع اللحوم ، واليوم لا أملك الا فروتين أفترش احداهما والتحف بالأحرى ، وهكذا تعامل الأيام ! »

وكان للبرامكة حفيد اشتهر بالشعر والظرف يلقب جحظة البرمكى ، وهو احمد بن جعفر بن موسى بن يحيى البرمكى . وكان يستجدى الأمراء بعد أن كان الشعراء يستجدون آباءه ، ويعتز بالنسب اليهم ويبكيهم على ما فعلت الدنيا بهم كقوله :

أنا ابن أناس مول الناس جودهم
فأضحوا حديثا للنوال المشهر
فلم يخل من احسانهم لفظ مخبر
ولم يخل من تقريظهم بطن دفتر

وقوله :

أصبحت بين معاشر هجروا الندى
وتقبلوا الأخلاق من أسلافهم
قوم احاول نيلهم فكأنما
حاولت نتف الشعر من آنافهم

هات اسقنيهـا بالـكبير وغننى
ذهب الذين يعـاش فى أكنافهـم

▭

واشتد الرشيد على البرامكة شدة ليس فيها تسامح ولا لين ولا كرم ، فقد نهى عن ذكر اسمهم وعن وقوف الشعراء ببابهم أو مقـابرهم وعن رثائهم . ولعـل عذره فى ذلك ان البرامكة كانوا قبضوا على زمام كل الأمور واصطنعوا كثيرا من الشعراء والفنانين ، وكان لهم انصار من الفرس يأتمرون بأمرهم وينتهون بنهيهم ويعتزون بعزتهم . فلعل هذا كله يسبب ثورة تطيح بعرش الخلافة نفسها

ومن اجل ذلك ايضا خشى أبو جعفر المنصـور ابا مسلم الخراسانى . ومع هذا بلغ من بعض الناس الوفاء حتى عرضوا انفسهم للقتل من حسن ما فعل البرامكة معهم

مآثر البرامكة

ومن ذلك ما يروى أن بعض الحرس وجد انسانا واقفا فى بعض الخرابات وفى يده رثاء للبرامكة ، فأخذ الحارس الرجل وأتى به الرشيد ، فقال له : «أما سمعت تحريمى لرثائهم ؟ » . فقال الرجل : « ان أذنت لى يا أمير المؤمنين فى حكاية حالى حكيتها ثم بعد ذلك انت ورأيك » . فقال : « قل » . قال : « كنت من اصغر كتاب يحيى بن خالد وارقهم حالا » . فقال لى يحيى : « أريد أن تضـيفنى فى دارك يوما ! » . فقلت : « يا مولانا ، انا دون ذلك !. . فدارى لاتصلح لهذا » .

قال يحيى : « لا بد من ذلك » . قلت : « فان كان لا بد فأمهلني مدة حتى أصلح من شأني ومنزلي ثم بعد ذلك انت ورأيك » . قال : « كم امهلك ؟ » . قلت : « سنة » . قال : « كثير » . قلت : « فشهور » . قال : « نعم »

فمضيت وشرعت فى اصلاح المنزل وتهيئة أسباب الدعوة ، فلما تهيأت أعلمت الوزير بذلك . فقال : «نحن غداً عندك» . فمضيت وتهيأت فى الطعام والشراب وما يحتاج اليه. فحضر الوزير فى غده ومعه ابناه جعفر والفضل وعدة يسيرة من خواصه واتباعه . فنزل عن دابته ، وقال : « يا فلان انى جائع فعجل لى بشىء » وقال لى الفضل ابنه : « الوزير يحب الفراريخ المشوية فعجل منها ما حضر » ، فدخلت واحضرت منها شيئا فأكل الوزير ثم قام يمشى وقال : « يا فلان فرجنا فى دارك »

فقلت : « يا مولانا ، هذه دارى ليس لى غيرها » قال : « بل لك غيرها » . قلت : « والله ما املك سواها » فقال الوزير : « هاتوا بناء » . فلما حضر قال له : « افتح فى هذا الحائط بابا » . فمضى ليفتح . فقلت : « يا مولانا كيف يجوز ان يفتح باب الى بيوت الجيران والله أوصى بحفظ الجار ؟ » قال : « لا بأس فى ذلك » . ثم فتح الباب فقام الوزير وابناه فدخلوا فيها وانا معهم فخرجوا منها الى بستان حسن كثير الأشجار والماء يتدفق فيه ، وبه من المقاعد والمساكن ما يروق كل ناظر ، وفيه من الأثاث والفرش والخدم والجوارى كل جميل بديع . فقال : « هذا المنزل وجميع ما فيه لك ! »

فقبلت يده ودعوت له ، فقال لابنه جعفر : « يا بنى هذا منزل وعيال ، فالمادة من اين تكون له ؟ » فقال جعفر : « قد أعطيته الضيعة الفلانية بما فيها ، وسأكتب بذلك كتابها » والتفت الى الفضل وقال له : « يا بنى فمن الآن الى أن يدخل دخل هذه الضيعة ما الذى ينفق ؟ » فقال الفضل : « على عشرة آلاف دينار احملها اليـه » . فقال : « فعجـلا له ما قلتما »

فكتب لى جعفر الضيعة ، وحمل الفضل المال الى فأثريت وارتفعت حالى وكسبت بعد ذلك معه مالا طائلا أنا أتقلب فيه الى اليوم . فوالله يا أمير المؤمنين ما أجد فرصة أتمكن من الثناء عليهم والدعاء لهم الا انتهزتها مكافأة لهم على احسانهم ولن أقدر على مكافأتهم ، فان كنت قاتلى على ذلك فافعل » . فرق الرشيد لذلك وأطلقه

قسوة الترك

ولما نكب النـــاس بالبرامكة وعاش من عاش منهم حتى رأوا سلطان الترك أنشدوا قول القائل :

رب يوم بكيت منه فلما صرت فى غيره بكيت عليه

فان شدة الاتراك وقسوتهم مكنتهم من أن يقتلوا الخليفة بعد اثنتى عشرة سنة من سلطانهم

وقد أكثر الترك من مصادرة الناس لأموالهم .. وكان من مصائب الرجل أن يكون غنيا . وقد صادروا الكتاب ، وصادروا الأمراء الكبار.وأخيرا تجرأوا فصادروا أم الخليفة

المتوكل لكثرة أموالها حتى اضطرت الى الهرب الى مكة . وكانت تدعو وهى فى مكة على التركى الذى سلبها أموالها، وهو صالح بن وصيف التركى ، وتقول : « اللهم اخز صالحا كما هتك سترى وقتل ولدى وشتت شملى وأخذ مالى وغربنى عن بلدى » . مما لم يفعله ولا بعضا منه الفرس فى أيام سلطتهم ، حتى ان البحترى لما شاهد قتل الترك للمتوكل خرج هائما على وجهه الى ايوان كسرى . وفى ذلك اشارة الى تفضيله حكم الفرس على حكم الترك ، وقال قصيدته السينية المشهورة يصرح فيها بأن الفرس ليسوا بقومه ، ولكن لهم فضل بما أيدوا من ملكهم وخدموا دولتهم .. مع أنه ليس من جنسهم . وعلى العكس من ذلك كان الترك . وانما دعاه الى ذلك كما يقول انه كان يألف الاشراف من كل جنس . ويحب الاصول من كل قوم يقول :

ذاك عندى وليست الدار دارى
باقتراب منها ولا الجنس جنسى
غير نعمى لأهلها عند أهلى
غرسوا من ذكائها خير غرس
أيدوا ملكنا وشدوا قواه
بكماة تحت السنور حمس
وأرانى من بعد أكلف بالاشرا
ف طرا من كل سنخ واس

وهكذا شتان بين سلطة العرب فى عهد الأمويين، وسلطة الفرس فى عهد الدولة العباسية الاولى . وعهد الأتراك فى

الدولة العباسية الثانية . فحكم البرامكة الذين نكبهم الرشيد لم يعوض فى عدلهم وكرمهم والمحافظة على الخليفة الذين يعملون تحت سلطانه ...

تدهور الدولة العباسية

وقد ذكر أحد المستشرقين أن عهد الرشيد كان مبدأ انحطاط الدولة العباسية ، وقد فكرت فى ذلك وأطلت التفكير : هل هذا صحيح ؟ وما هو السبب ؟ لانه لم يذكر سببا . هل لانه فى عهد الرشيد انقطعت بلاد المغرب عن المملكة .. ولكن هذا وحده لا يكفى سببا للانهيار ، والاكان خروج الاندلس وهى أعظم من المغرب هى بدء الانهيار - أو يريد انتشار اللهو انتشاراكبيرا كالذى كان عند الرومانيين من أسباب سقوطهم .. وهذا أيضا غير صحيح ، فان اللهو والترف كان حظ الخلفاء ومن يتصل بهم فقط ، أما الشعب كله فأغلبه بائس فقير جاد..أو يريد تحقيق قول الشاعر:

ما طار طير وارتفع   الا كما طار وقع

وهذا أيضا غير صحيح لان عظمة الحضارة فى عصر المأمون ، كانت أكبر منها فى عهد الرشيد

وانما السبب الذى يجعل هذا الرأى صحيحا فى نظرى هو انه فى عهد الرشيد تجلت العصبيات وبلغت فيه الذروة .. فالامويون كانوا متعصبين تعصبا عربيا ، فالولاة عرب وكل شىء عربى أما الموالى فأذلاء خافتو الاصوات حتى ليظن العربى أن أخاه المولى لا يستحق أن يرث كما يرث ، وكان العربى أحيانا لا يريد أن يصلى وراء الامام المولى

فلما جاءت الدولة العباسية انتقلت العصبية للعرب الى عصبية للفرس فكانت التقاليد والاعياد وغير ذلك فارسية، وانحط شأن العرب لأن الدعوة العباسـيـة قامت بأهل خراسان فحفظ العباسـيون لهم جميلهم . وجاء البرامكة فزادوا هـذه العصبية قوة ، فهـم كانوا ينشرون الثقافة الفارسية ويؤيدون كل ما هو فارسى حتى روى أن الرشيد مرة أراد أن يهدم ايوان كسرى ، فارتاع من ذلك البرامكة .. وقال له يحيى : « لا تهدم بناء دار دل على فخامته شأن بانيه الذى غلبته وأخـذت ملكه » قال الرشيد : « هذا من ميلك الى المجوس . لابد من هدمه » فقدر للنفقة على هدمه شيئا استكثره الرشيد فأمر بترك هدمه ، فقال له يحيى : « لم يكن ينبغى أن تأمر بهدمه،أما وقد أمرت فليس يحسن أن تظهر عجزا من هدم بنـاء بناه عدوك » . فلم يقبل قوله ولم يهدمه

فلما نكب البرامكة وكانوا فرسا ضعفت العصبية للفرس أيضا،كما ضعفت للعرب من قبل . وكان القتال بين الأمين والمأمون الذى سببه غلط الرشيد فى توليتهما العهـد من بعده سببا آخر فى ضعف العصبيتين ..فقد تعصب العرب للأمين وتعصب الفرس للمأمون فضعفت العصبيتان معا ، لأن القتال العنيف يضعف الغـالب والمغلوب . ولذلك لما جاء المعتصم لم يستطع أن يعتمد على العرب ولا على الفرس، وأتى بعنصر ثالث وهو الاتراك واعتمد عليهم.وقد تعصبوا لعنصرهم وحاولوا اذلال العرب والفرس جميعا.ورفع شأن العنصر التركى عليهم فنكلوا بالعرب ثم بالفرس ثم نكلوا بالخلفاء أنفسهم .. فمنهم من قتلوه ، ومنهم من سـملوا

عينيه ، وكلهم قد سلبوا سلطته وجردوه من حوله

وهذا ما يصح من أجله أن يعد عهد الرشيد أول عهد بدأت فيه عناصر انحطاط الدولة العباسية . ويكون كلام المستشرق صحيحا بهذا المعنى ، فالاتراك نتيجة لنكبة البرامكة ، والاتراك هم الذين أضعفوا شأن الخلفاء وأذلوهم وما زالوا بهم حتى سلبوهم كل سلطة .. ثم ختمت المأساة بغزوة التتار

نقطة سوداء

وعلى الجملة ، كانت نكبة البرامكة نقطة سوداء فى تاريخ الرشيد ، فقد أعلى البرامكة ثم فتك بهم . وقد زلزلت الحادثة الشرق والغرب معا ، لان البرامكة كانوا يحسنون معاملة الرعية ويتولون كل شؤونهم ويتقربون الى الشعراء، حتى قل أن نرى شاعرا لم يقل فيهم شعرا كالذى قاله بعضهم :

ألم تر أن الشمس كانت سجينة
فلما ولى هرون أشرق نورها

بيمن أمين الله هرون ذى الندى
فهارون واليها ويحيى وزيرها

وقول الآخر :

أتانا بنو الاملاك من أرض برمك
فياطيب أخبار ويا حسن منظر

اذا نزلوا بطحاء مكة أشـــــرقت
بيحيى وذى الفضل بن‌يحيى وجعفر
فتظلم بغـــداد وتجلو لنـــا الدجى
بمكة ما حجـــوا ثلاثة أقمـــر
فما خلقت الا لجود أكفهـــم
وأقـــدامهم الا لأعـــواد منبر

وقول الآخر :

رأيت يحيى أتم الله نعمتـــــه
عليه يؤتى الذى لم يؤته أحـــد
ينسى الذى كان من معروفه أبدا
الى الرجال ولا ينسى الذى يعـد

وقول الآخر :

أجدك هل تدرين ان زرت ليـــلة
كأن دجاهـــا من قـــرونك ينشر
صببت لهـــا حتى تجلت بغـــرة
كغـــرة يحيى حين يذكر جـــعفر

الى كثير من أمثال ذلك

فالنقمة عليهم روعت الناس من تقريب شديد الى تنكيل شديد ، من غير ما ذنب معروف جنوه

وأما الغربيون فقد روعهم الحادث لانه لم يكن فى نظرهم عادلا ، فلم يحاكموا بتهمة معينة ولا ســـمعت أقوالهم ولا عرفت أســـباب النقمة عليهم • وتجلى المنظر عن قوم فى السماء وضعوا فى الحضيض • ومن أيد تقبـــل الى خدود ترغم •• فنقموا على الرشيد فعلته

والحق أن هذا عيب الحاكم المستبد دائما ، فهو عرضة لأن يفعل أقصى الخير وأقصى الشر. وهذه الحادثة مما شهرت الرشيد . فالانسان العظيم يشتهر بما يأتى من خير وشر. ولكن عيب هؤلاء المؤرخين انهم يقيسون دائما الزمن الماضى السحيق فى القدم بزمنهم ، غير مقدرين فروق الزمان والمكان. وبهذه النظرة عابوا على الاسلام مثلا اقراره الرقيق وتعدد الزوجات ونحو ذلك

ولم ينظروا الى الرقيق قبل الاسلام وما فعله الاسلام ، ولا الى تعدد الزوجات قبل الاسلام وبعده. كذلك لم ينظروا الى كل ظروف الرشيد وما يحيط به من شئون عائلية واجتماعية وغير ذلك . وقد كان الرشيد فى أيامه مثالا للملك الحاكم بأمره .. فيه مزاياه وفيه عيوبه . وما كان لأى رجل من رجال العصر الحاضر أن يفعل غير ما فعل ، لو عاش فى زمنه وتخلق بأخلاقه وأحيط بالبيئات التى أحاطت به

فلنأخذ الامور كما جرت ، ولنقسها بمقياس زمانها لا بمقياس زماننا نحن خصوصا واننا لم نسمع من الرشيد حججه فيما فعل . كما لم نسمع من البرامكة دفاعهم عن أنفسهم . وقد فعل أبو جعفر المنصور مثل ذلك فى أبى مسلم الخراسانى ، وهو الذى قامت الدولة العباسية بفضله وفضل أمثاله . وكذلك قتل وزيره أبا أيوب الموريانى . ووكل المهدى بمن سماهم الزنادقة ، وهى أمور خفية جدا

لا يعلمها الا الله والمتهم،وكثيرا ما يكون الشخص حر التفكير نوعا ما فيتهم بالزندقة ويقضى عليه

نعم ان الخطأ لا يبرر الخطأ ·· ولكن سقنا هذا لنبين أن ما فعله الرشـــيد بالبرامكة هو طبيعة العصر وسنة ذلك الزمان ، بل نجد فى عصرنا الحاضر أمثال ذلك·· فقد نكل ملك فرنسا بالمسيو فوكيه ، ونكل هتــلر باليهود ونحو ذلك كثير

على أن المؤرخين يروون عن الرشيد ندمه على فعلته وضيق صدره مما كان ، حتى ربما كان ذلك سببا من أسباب رحيل الرشيد بعد قليل من النكبة من قصر الخلد ببغداد الى الرقة بالجزيرة ·· لئلا تقع عينه على مساكنهم ولا تثير الحزن فى نفسه المناظر التى كان يراها والمجالس التى كان يجلسها مع جعفر البرمكى ونحو ذلك · يضـاف الى سبب انتقاله ثورات الشام المتوالية ، وحاجته الشديدة الى القرب منهـا لسهولة قمعها

ولا شـــك أنه كانت من مزايا البرامكة أنهم تحملوا عبء الدولة كله عن الرشـــيد أيام كان غضـــا طريا لم ينضج بعد · فلما نكل بهم كان فى سن ناضجة يستطيع أن يتحمل العبء الكبير الذى خلفوه ، فقـد كان فى يدهم منـاصب الوزارة ومناصب الجيش الكبرى والادارة فحمل الرشـيد كل ذلك

وقد صمم الرشيد على قتل جعفر وسجن يحيى وبقية أولاده ، فصادر أموالهم الكثيرة ونكل بمن مدحهم أو ظل يمدحهم بعد نكبتهم الا القليل . وأصبحت هذه الأسرة أسرة بائسة ذاقت من البؤس والشقاء بمقدار ما ذاقت من النعيم والرفاهية

وتوفى يحيى وهو فى السجن .. ولحق به ابنه الفضل

المواليا

وكان مما يؤثر أنه فى عهد الرشيد ظهر نوع جديد من الشعر يقال له المواليا ، ظهر فى بغداد بعد الفتك بالبرامكة فقد ذكروا أن الرشيد لما قتل جعفرا البرمكى ، أمر أن لا يرثى بشعر . فرثته جارية له فى بيتين على وزن خاص وجعلت تنشدهما وتقول

يا مواليا يا مواليا الخ .. فلا كان شعرا ولا كان نثرا وهما :

يا دار أين ملوك الارض أين الفرس
أين الذين حموها بالقنا والترس
قالت تراهم رمم تحت الأراضى الدرس
سكوت بعد الفصاحة ألسنتهم خرس

وهذا النوع هو الذى تطور فيما بعد وتطور اسمه من مواليا الى مواويل جمع موال

الثورات فى عهد الرشيد

وقد تعددت الثورات فى عهد الرشـيد لاسباب مختلفة أوقعت الدولة أحيانا فى أزمات حرجة ، لولا حزم الرشيد وهمته ورجاله ٠٠ منها غيظ الروم من عظمة المملكة الاسلامية وتفوقها والاهتمام بدس الدسائس لاضعافها ، ومنها ميل الشاميين للدولة الأموية وحزنهم عليها وغضبهم من الايقاع بالأمويين ٠ وتمنيهم أن تعود السـلطة للعرب ، يدل على ما عرف عن الدولة العباسية من غلبة سلطان الفرس عليها ٠٠ حتى ليروون أن رجلا من الشاميين صرخ فى المأمون عند زيارته للشام ، يقول له : انظر الينا كما نظرت الى الفرس

ومنها الحزب العلوى الذى كان يكره العباسيين أشـد الكره بعد أن ضحك العباسيون عليه ثم تخلوا عنه

وقد ظلوا يحافظون على بيتهم ويتطلعون الى الحكم، وكلما مات امام مستتر أو قتل ، خلفه امام آخـر ينتظر للوقت المناسب

ومنها خروج الخوارج الذين ظلوا من عهد أن تكونوا فى عصر على، يحافظون على مذهبهم ويخرجون من حين الى آخر يودون تحقيق أمنياتهم واستيلاء أحد من رجالاتهم على الدولة فيقضى فيها بكتاب الله وسنة رسوله ولو كان عبدا حبشيا، لا يرضون عن أمويين ولا عن عباسـيين ، لانهم فى نظرهم كافرون أو على الأقل ظالمون٠أسرفوا فى الشراب وأسرفوا فى النساء والغناء وما الى ذلك من بذخ ٠٠ فوجبت ازالتهم عن الملك وتولية من يصلح لهذا الغرض على مبادئهم

ومنها أن بعض البلاد البعيـدة رغبت فى الاستقلال عن

الخلافة وحكم نفسها بنفسها وعدم الخضوع للسيطرة العباسية عليها الى غير ذلك ..

□

كل هذا كانت تواجهه الدولة العباسية .. وبكلمة أوجز ما كان يواجهه الرشيد من حين الى حين . فما نشبت ثورة وخمدت الا قام غيرها ، وبجانب ذلك كان الرشيد نفسه يريد أن يضعف الروم حتى لا يدسوا له الدسائس، فأنشأ مدينة تسمى العواصم للاعداد لغزو الروم منها ، وكان يدبر لهم غزوة فى الصيف تسمى الصائفة قد يقود جيشها بنفسه فيغنم الغنائم الكثيرة التى كانت تعد بابا كبيرا من أبواب الدخل ، وغزوة فى الشتاء تسمى الشاتية ونحو ذلك

فمن النوع الاول مثلا، ان ثار أهل الخزر فى أيام الرشيد بتحريض من البيزنطيين وعقدوا معهم شبه تحالف، وأغاروا على ارمينية وأفسدوا فى البلاد ، وأعملوا فيهم السيف ، ومثلوا بالسكان الآمنين على نحو لم يسبق له نظير فاضطر الرشيد أن يبعث اليهم حملات قوية تعاملهم بالقسوة والرعب فانتصروا عليهم وأخمدوا ثورتهم

ومن النوع الثانى ما قام به أهل الشام من ثورات متعددة ، ثورة بعد ثورة ، مما جعل الرشيد يفضل انتقاله من بغداد وسكناه فى الرقة كما ذكرنا

ومن النوع الثالث ما قام من ثورات علوية تريد الاستيلاء على الخلافة . وقد ظهر فى أيام الرشيد الامام موسى الكاظم الذى سمى كاظما لصبره وكظم غيظه ودماثة خلقه ومقابلته

الاساءة بالاحسان . وكان محبوبا من جميع أهل المدينة ، فخشى منه الرشيد وأمر بالقبض عليه وأتى به الى بغداد ، وسلمه الى أخت السندى بن شاهك..وكانت امرأة فاضلة عاملت سجينها بالعطف والاحسان ، فظل مسجونا حتى توفى فى منزل سجينته وخلفه فى امامة الشيعة ابنه على الرضا وكان أعلم أهل بيته فى الفقه والآداب

ومن النوع الرابع ما ظهر من الوليد بن طريف الشارى الشيبانى ، وقد كان زعيم الخوارج فى أيامه ، وكان شجاعا فتاكا يقيم بنصيبين والخابور فخرج فى خلافة الرشيد فى حشد حاشد ، فأرسل اليه هرون يزيد بن مزيدالشيبانى، فظهر عليه يزيد وقتله

وكان للوليد هذا أخت تسمى الفارعة تجيد الشعر وتسلك سبل الخنساء فى مراثيها لصخر ، وقد رثت أخاها الوليد فى قصيدة من قصائدها بقولها :

فياشجر الخابور مالك مورقا
كأنك لم تجزع لموت طريف

فتى لا يحب الزاد الا من التقى
ولا المال الا من قنا وسيوف

حليف الندى ما عاش يرضى به الندى
فان مات لا يرضى الندى بحليف

فقدناك فقدان الشباب وليتنا
فديناك من فتياتنا بألوف

وما زال حتى أزهق الموت نفسه
شجى لعدو أو ندي لضعيف

ألا قاتل الله الحشـا حيث أضمرت
فتى كان للمعـروف غـير عيوف
فان يك أرداه يزيـد بن مـزيد
فرب زحـوف لفها بزحـوف
عليك سـلام الله وقفـا فانني
أرى المـوت وقاعا بكل شريف

وكان الوليد يوم الوقعة ينشد :

أنا الوليد بن طريف الشارى
قسورة لا يصطلى بنـارى
جـوركم أخـرجنى من دارى

وقد تزعمت الفارعة حركة الثوار بعد مقتل أخيها وتولت القيادة بنفسها ، واشتبكت مع جيش الرشيد فى معركتين داميتين حتى نهرها أحد أقاربها .. فأمرها أن تلقى السلاح وتعود الى خدرها ، وكانت وسيمة الطلعة رشيقة القوام أديبة ظريفة ، تحفظ الشعر وتقوله ...

ومن النوع الخامس ان بلاد تلمسان بالمغرب أرادت أن تنفصل عن الدولة العباسية فثارت وحملت الدولة مبالغ طائلة لاخضاعها وكانت مصر تدفع نحو مائة ألف دينار سنويا من ايرادها الخاص لسد عجز حكومة أفريقيا حتى تمكن ابراهيم بن الاغلب من الاتفاق مع الرشيد على تهدئة الثورة وتحمل المبلغ الذى تدفعه مصر . وتقديم أربعين ألف دينار سنويا الى حكومة بغداد

ومن النوع السادس ، ان الرشيد كان يهتم أكبر اهتمام بالروم خصوصا بعد أن أخلوا سنة ١٨٠ بشروط الهدنة

التى كانت ايرينى قد عقدتها مع المنصــور . اذ أغازوا على البلاد الاسلامية فبعث اليهم الرشيد من هزمهم واستولى على مدينة لهم بقرب أنقرة وعلى أنقرة نفســـها . وأعاد احتلال قبرص بعد أن خرجت من أيدى المسلمين .. وألزم الروم بدفع الجزية وتبادل الأسرى. ولكن نقفور ملك الروم كتب الى الرشيد فيما يرويه مؤرخو المسلمين رســالة غير مؤدبة يقول فيها :

« من نقفور ملك الروم الى هرون ملك العرب

« أما بعد.. فان الملكة التى كانت قبلى أقامتك مقام الرخ، وأقامت نفسها مقـــام البيدق . فحملت اليك مــن أموالها ما كنت حقيقا بحمل أمثاله اليها. ولكن ذلك ضعف النساء وحمقهن . فاذا قرأت كتابى ، فاردد ما حصـــل قبلك من أموالها . وافتد نفسك بما تقع به المصــادرة لك .. والا فالسيف بيننا وبينك »

فغضب الرشــيد من هذا الكتاب غضبا شديدا حتى لم يجرؤ أحد على النظر اليه من غضبه.. وكتب اليه كتابا غير مؤدب أيضا ـ والبادى أظلم ـ يقول فيه :

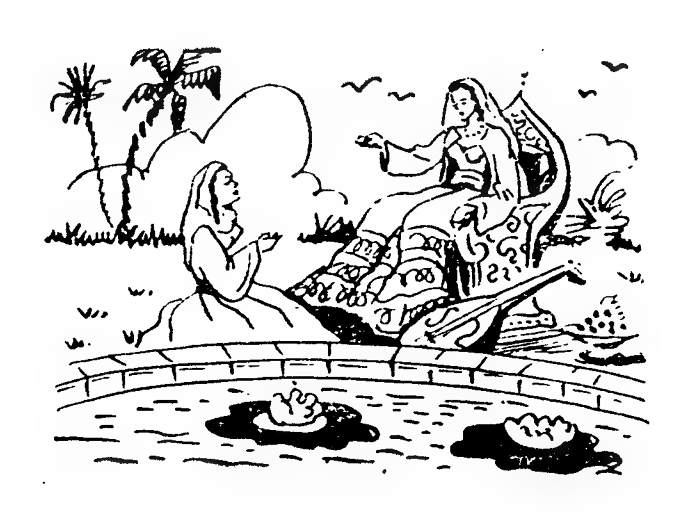
« بسم الله الرحمن الرحيم ـ من هرون الرشيد الى كلب الروم

« قد قرأت كتابك ، والجواب ما تراه لا ما تسمعه »

وقد بر الخليفة بايعاده وشخص بنفسه على رأس جيشه، حتى وصل الى « هرقلة » احدى البلاد البيزنطية . فدارت بين الفريقين معركة حامية أسفرت عن هزيمة الروم هزيمة منكرة . وقد تبين من هذه الحروب ان الفنون الحربية عند

المسلمين كانت أرقى منها عند الروم • وتوسل نقفور الى الرشـــيد أن يقبل منه جزية أكثر من تلك التى قبلها من ايرينى • فأجابه الخليفة الى ذلك ـ وقد كانت تنشأ ثورات أخرى منشؤها محاولة ارجاع الدولة العباسية الى عهـــد الفرس الماجد الزاخر • وهذا داء قديم

وكثير ممن اتهموا بالزندقة وقتلوا عليها فى عهد المهدى كانوا أشخاصا حاولوا مثل هذه المحاولة • وكانت ثورات سياسية •• انما صبغت بالصبغة الدينية لاستمالة الرأى العام • وقد اتهم البرامكة بمثل هذه التهمة بجانب التهم التى عددناها • وذلك مثل ثورة الخرمية فى طبرستان •• فقد تحركوا بناحية اذربيجان تدعوهم الى ذلك القومية على ما يظهر ، فوجه اليهم الرشيد عبد الله بن مالك فى عشرة آلاف فارس فأسر وسبى حتى انتهى أمرهم



الشعر والغناء



مجالس الرشيد

على كل حال لم يخلد اسم هرون تلك الحروب ولا الانتصارات ، وانما خلدته مجالس الأدب والعلم ومجالس الغناء

نعم ، قال أبو تمام : « السيف أصدق أنباء من الكتب»، وقد يكون ذلك كذلك،ولكن لسان الكتب أطول وأدوم،وانما كان سبب خلوده الاسباب التى ذكرناها من قبل،وهى أن الرشيد من حسن حظه أن جاء والمدنية الاسلامية قد بدأت فى النضوج،وتم نضجها فيما بعد فى عهد المأمون ، فكانت مدنية عظيمة تفوق مدنية الاوربيين فى ذلك العهد ، فتدفقت الأموال على بغداد ، وازدهرت التجارة بطرف الدنيا ، والعلوم والفنون بشتى أنواعها مزدهرة ، لم يجتمع على أحد غير الرشيد ما اجتمع من أهلها ، وبيت المال يتكدس بالمال ، والرشيد يغدق بغير حساب ، ومجالس الغناء يزينها ابراهيم بن المهدى واسحاق النديم وابراهيم الموصلى ، والنصارى مثل جبريل بن بختيشوع ، يمهرون فى الطب وينشرون كثيرا من الفلسفة اليونانية ، اذ كان الطب أحد فروعها . ويهتم الخلفاء من عهد المنصور بعلم الفلك لاعتقادهم أن حوادث الدنيا متأثرة بحركات النجوم ، ويشتهر فى ذلك أمامان عظيمان : ما شاء الله اليهودى وأحمد بن محمد

النهاوندي . والفقه يعظم في ذلك العهد على يد أبي يوسف، ومحمد صاحبي أبي حنيفة .. وتؤلف الكتب على هذا المذهب وتنتشر في الأمصار . واللغة تقيد في عصره فيؤلف الخليل بن أحمد البصري المعجم ويضع أصول اللسان العربي وأصول تصريف الكلمات . ويتوسع في ذلك بعد الكسائي مؤدب الأمين فالمأمون . وسيبويه النحوي المشهور . ويضع أبو عبيدة معمر بن المثنى كتابا في فقه اللغة في المترادفات وكيفية استعمالها في مواضعها والحركة بين البدو والحضر حركة قوية شديدة . يأتي البدو الى الحضر فيأخذ عنهم الحضريون لغتهم وشعرهم وأدبهم ويرققون أشعارهم ، ويخرج الحضريون الى البدو فيأخذون عنهم ذلك

وارتفعت بلاغة الشعر في مثل علي بن الجهم، وأبي نواس، وأبي العتاهية .. وحتى النساء كن يقلن الشعر كما روينا من قبل عن الفارعة .. حتى اذا أنصفنا حكمنا بأن الشعر الحضري الذي روى لنا في عهد الرشيد وأمثاله كان أرقى من الشعر الجاهلي ، والفرق بينهما كالفرق بين قول امرىء القيس ، اذ يقول :

تقول وقد مال الغبيط بنا معا
عقرت بعيري يا امرىء القيس فانزل

وقول علي بن الجهم :

فبتنا جميعا لو تراق زجاجة
من الخمر فيما بيننا لم تسرب

وكان كثير من الشعراء يلازمون الرشيد كالذي حكى عن

أبى العتاهية انه كان لا يفارقه فى سـفر ولا حضر . وكان ينتصح الرشيد بشعره ويبكى من مواعظه كقوله :

كأن كل نعيـم أنت ذائقـه
من لذة العيش يحكى لمعـة الال

ومن الناحية الاخرى كان مثل أبى نواس على عكس مذهب أبى العتاهية ، يتغزل فى الذكور والنساء والزهر والخمر . فكان يذكر فى شعره ابليس والخمر كما يذكر أبو العتاهية فى شعره الجنة والنار ، كالذى يقوله أبو نواس :

وليلة طال سـهادى بهـا فجاءنى ابليس عنـد الرقاد

وقوله :

هل لك فى قهـوة معتقـة عتقها العاصر من عهد عاد

وقوله :

رق الزجاج وراقت الخمـر وتشابها فتشـاكل الأمر
فكانما خمـر ولا قـدح وكانما قدح ولا خمـر

الى كثير من أمثال ذلك ..

والرشيد يستجيب لنصح ذاك وتهتك هذا .. ولامعان الناس فى عهد الرشيد فى الشراب فلسفوه وأكثروا القول فيه ، حتى لم يقل شعراء فى لغة ما قالوه فى هذا العصر . وتفننوا فيه فأخذوا لونا من الشراب من الروم ، وهو خمر ممزوج بالعسل،ونقلوا اسمه الرومى ـ وهو الرساطونى ـ ولم يأتمروا بأمر الاسلام ، اذ يقول : « انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون »

ومن أجل الهروب من هذا الأمر أخذوا يتفننـون فى

الاسئلة. ما المراد بالخمر؟ : أهو يشمل النبيذ أو لايشمله؟ وما القدر الذى يحل والذى يحرم ، وما النوع الذى يحرم، وما النوع الذى يحل ؟

ويظهر ان الامام أبا حنيفة كان يتبع عبد الله بن مسعود فى تحليله لنبيذ التمر والزبيب اذا طبخ أو فى شرب قدر منه لا يسكر ، وكذلك نبيذ العسل والتين والبر

وأخذ الشعراء يتفكهون فى شعرهم بحرمة الخمر كالذى قال :

من ذا يحرم ماء المزن خالطه   فى جوف خابية ماء العناقيد
انى لاكره تشديد الرواة لنا   فيه،ويعجبنى قول ابن مسعود

وقد اشتهر بينهم ان الفقيه الحجازى يحرم النبيذ والفقيه العراقى يحلله ، ولذلك قال شاعرهم :

رأيه فى السماع رأى الحجاز   وهو فى الشرب رأى أهل العراق

ويقول آخر :

أباح العراقى النبيذ وشربه   وقال حرامان المدامة والسكر
وقال الحجازى الشرابان واحد   فحل لنا من بين قوليهما الخمر
سآخذ من قوليهما طرفيهما   وأشربها لافارق الوازر الوزر

وطائفة أخرى لا تحب أن تتحمل أو تتمحـــك ، فاما أن يتركوها تركا تاما أو يهجروها هجرا تاما

قال أبو نواس :

فان قالوا حرام قل حــرام   فان لذاذة العيش الحـــرام

ويقول :

الا فاسقنى خمرا وقل لى هى الخمر
ولا تسـقنى سرا اذا أمكن الجهـــر

وهكذا أصبح النبيذ والخمر أمرين شائعين بين النـاس لا يخلو منهما بيت من بيوت العظماء والاغنياء

وتسربت عوائد الفرس والروم والعرب الى الناس ·· وكان من ذلك كله أدب غزير فى الخمر وأوصافها والندمان وأوصافهم وعيوبهم ومحاسنهم ، حتى ملأ الأدب العربى وحتى ان الصوفية كابن الفارض وغيره قلدوا الماجنين فى قولهم فى الشراب وغزل المذكر وغزل المؤنث ، وان لم يكن هناك خمر ولا نساء ولا ذكر

ابراهيم الموصلى

وبجانب الشعر الغناء ·· جاءت طبقة من المغنين أخذت أصول الغناء عن ابن سريج وابن محـــرز المكيين ، ومالك ومعبد المدنيين ، واشترك النساء فى الغناء ، وغنين الغناء العربى والفارسى · ووجدت مدارس للغنـــــاء تتناحر وتتسابق وقد شجع البرامكة الغناء الفارسى ، والى جانب الغناء الرياضة ، وهناك القصص اللطيف الذى يحكى أمور الماضـين والحاضرين ويســـجل أحداثهم · ولم يقف فى التاريخ عند حد الروايات عن الماضين ، فقد ركبوا البحار ودونوا الرحلات وأدخلوا فى التاريخ ماشاهدوه وما سمعوه وكما اشتهرت بغداد أم الحضارة بهذه الاشياء كلها ، كانت دمشق ومصر صورة مصغرة

ولم يكتف الأمر بهذا ، بل أفسحوا صدورهم اعتزازا بمدينتهم الى الوفود تأتيهم من الروم وغير الروم · يعجبون بما يرون من حضارة لا قبل لهم بها ويذهبون الى بلادهم

فيتحدثون بما شاهدوا وما سمعوا ويقلدون ما يستطيعون تقليده ، وقد روى التاريخ كلمات كثيرة عن القساوسة والمستشرقين يحضون قومهم على أن يفعلوا فعل المسلمين

▭

هذه ، لا الحروب ولا الانتصارات ، هى التى أعلت شأن الرشيد فى نظر الشرقيين والغربيين ، وخلدت ذكره وأعلت مقامه وجعلته على كل لسان . فقد نقل اليهم كتاب بطليموس وأقليدس وعربت رسائلها . ولم تكن دراساتهم لها نظرية بحتة ، بل كانت تطبق عمليا : مثل البوصلة البحرية التى مكنتهم من السير فى البحار والمهارة فى التجارة ، حتى ساروا الى سواحل الهند وجزيرة الملايا ، وتوغلوا فى بلاد الصين وصارت البصرة ثغرا تجاريا هاما . وكالساعة الدقاقة التى اخترعها العرب ، ويصفونها بأنها كانت اذا جاء موعد الساعة دقت وخرج منها رجال على الخيل بعدد الساعات ، فاذا انتهت الدقات دخل الخيالة

وكان مما خلد الرشيد ، مجالسه المتنوعة المتعددة . فمجلس غنائه كان عماده ابراهيم الموصلى ، ثم من بعده ابنه اسحاق وزلزل الدفاف وبرسوم الزامر . وابراهيم الموصلى هذا كان زينة مجلس الرشيد واطار الشخصيته كما تصوره لنا ألف ليلة وليلة . وهو فارسى الأصل أبا وأما ، رزقه الله حسن الصوت على خير ما يرزق المغنيين فى جميع العصور . ورزق الى حسن صوته جودة انشائه للشعر وحسن تلحينه

يروى عنه انه أنشأ ولحن وغنى قوله :

ربما نبهني الاخــو ان والليــل بهيــم
حين غــارت وتدلت في مهاويهـا النجــوم
ونعاس الليـل في عيــ ـنى كالثـاوى مقيـم
للتي تعصر لمــا أينعت منهـا الكــروم
أنا بالــرى مقيــم في قــرى الرى أهيــم
ما أرانى عن قرى الـرى مدى دهــرى أريــم

وكان من أصل فقير هرب من فارس ونشأ يتسكع في البلاد . وكان في كل بلد طائفة من الشبان الخليعين لا ميل لهم الى الجد ، يقضون حياتهم في شراب ونساء وغناء ، وقد مهروا بالمروءة والنجدة خصوصا اذا نزل عليهم ضيف من أمثالهم

وهؤلاء الطائفة تسمى « الفتيان » وهي كالتي نسميها اليوم بالبوهيميين ، وذلك قبل أن تتطور كلمة «الفتيان» الى المعنى التركي ، فتأخذ شكلا دينيا وشكل اتحاد عمال معا . وقبل أن يتخذها الصوفية في لغتهم فيطلقونها على جماعة الصوفية المتدينين ذوى المروءة

واشتهر ابراهيم بينهم بحسن الصوت فأعجبــوا به ، وكان في احدى مراحله بالموصل فسمى «ابراهيم الموصلي» ، ثم ذاع ذكره وحسن تلحينــه وغنائه ، فاستدعاه الخليفة المهدى . ولكن كان به آفة وهي انه كان لا يكاد يفيق كزملائه الفتيان . والمهدى لم يكن يشرب ولا يحب الشـاربين الا ما كان أجازه لجبريل بن بختيشوع اذ كان لابد أن يشرب . والمهدى لا يستطيع الاســتغناء عنه فأباح له أن يشرب هو . فطلب المهدى من ابراهيم الموصــلى ألا يشرب فلم

يستطع ، ووجدت عقدة فى بيت المهدى وهى أن فى البيت ابنين وهما الهادى والرشيد ، ويخاف عليهما الانغماس فى الشراب ويخاف عليهما من مخالطة الموصلى . ويخاف أن يجتمع عليهما حسن شعر الموصلى وحسن تلحينه وحسن غنائه، منضما ذلك كله الى شباب الهادى والرشيد وغناهما وترفهما ، فاذا هما سكيران لا يصلحان للخلافة

ورعب من تلك النتيجة التى تخيلها بحق ، فأخذ الايمان الموثقة على ابراهيم الموصلى ألا يشرب بحضرة الهادى والرشيد . وكيف ينفع التحذير وكل العوامل ممهدة لهذه النتيجة .. جاذبية الموصلى وقابلية الهادى والرشيد لهذه الجاذبية ..

فأتت الجواسيس المهدى يوما تقول : انه غناهما وفتنهما فشربا معا ، فجن جنون المهدى من هذه الفعلة خصوصا بعد أن استوثق منه . فضربه ضربا مبرحا ، ثم نهاه ، ثم عاد فأقصاه من القصر ووضعه فى السجن وأمر بتعذيبه فيه تعذيبا شديدا . ولكن كان من حسن حظه أن مات المهدى وجاء الهادى الذى حبس الموصلى من أجله، فاستنجد به ، فأنجده ومنحه الهادى مالا كثيرا حتى أصبح ثريا ، واتخذه نديما له حتى مات

مدرسة الموصلى

وبلغ الموصلى ذروته فى عهد الرشيد .. فقد كان الرشيد أحب للموصلى وأحب لغنائه فقربه اليه وجعله زينة مجلسه. وصار يتكسب من الرشيد ومن مدرسة أخرى اهتدى

اليها، وهوانه كان يأتي بالفتيات الجميلات فيعلمهن التلحين ويعلمهن الغناء • وأقبل الناس على تلميذات مدرسته اقبالا شديدا اذ كان قد اجتمع لهن جمال الشكل وجمال التلحين وجمال الصوت

وكان الناس قبله يعلمون الفتيات غير الجميلات حرصا على الفتيات الجميلات وتنحية لهن من هـذا المأزق ، فجاء الموصلي بحسن ذوقه فأدرك ان تجارته لن تروج الا اذا علم الفتيات الجميلات • فدر ذلك عليه مبلغا من المال طائلا ، وقد نجحت مدرسته نجاحا باهرا •• فانتشرت تلميذاته فى بيوت الاغنياء من أمراء وتجار ، فكنت اذا مشيت فى شوارع بغداد أو فى شوارع المدن ، سمعت أصـواتهن تتجاوب فى كل مكان

□

وشىء آخر عظيم الفائدة ، كان أيضا من برنامج مدرسته يعلمه فى جد واتقان وهو فن الظرف • وهـذا فن واسع ربما يمثله خير تمثيل « كتاب الوشاء » وان كان قد ألفه بعد ذلك العهد بقليل •••

فكان يعلمهن درسـا فى ألوان الملابس ومناسـباتها للحفلات ومناسبة بعضها لبعض ومناسبتها للنعـال • ودرسا ثانيا فيما يصلح أن ينقش على الخواتيم والفصوص، ودرسا ثالثا فى التعطر والتطيب ، ودرسـا رابعـا فى تصغيف الموائد والاطعمة وكيفية الأكل، من وجوب تصغير اللقم ، والتحـرز من الشره ، وعدم تلطيخ الاصابع وعدم

تجاوز ما بين أيديهن ، وعدم افساد رائحتهن بأكل الثوم والبصل ونحو ذلك • وعدم التخلل على المائدة قبل أن تفرغ ونحو ذلك

ودرسا خامسا في الزهور والورد وكيف تنظم الطاقات، ثم ينتقل في الدروس الأخيرة من الماديات الى المعنويات : فكيف يتحدثن فيحسن الحديث، وكيف يجب أن لا يداخلن أحدا في حديثه ، ولا يتطلعن الى مكتوب يقرؤه قارىء ، ولا يقطعن على متكلم كلامه ، ولا يحاولن أن يستمعن الى أحد يتحدث في سر ، ولا يسألن عما ووري عنهن علمه ، ولا يتكلمن فيما حجب عنهن فهمه ، ولا يتثاءبن في المجلس ، ولا يتمطين ، ولا يمددن أرجلهن ، ولا يمسسن أنوفهن بأيديهن • ثم يعلمهن انهن اذا أهدين أهدين الشىء اللطيف الخفيف كالتفاحة المنقوشة الواحدة والاترجة الواحدة، والغصن من الريحان والطاقة من النرجس ونحو ذلك • ويعلمهن أيضا كيف يكتبن الكتب الظريفة لمن يحببن أو لمن يشكون ونحو ذلك،وكيف ينقش على قمصانهن وأرديتهن وأكمامهن وعصائبهن ومناديلهن ونعالهن ، وما يكتبنه بالحناء على راحتهن وأبدانهن ، وما ينقشنه على أواني الفضة والذهب والكاسات والاقداح وعلى آلات الموسيقى من العيدان والطبول والدفوف والنايات

وعلى الجملة ، فكان يعلمهن قوانين الظرف ، بجانب قوانين الغناء ، ويعلمهن ما نسميه اليوم « بالاتيكيت » • ويؤلف فيه المسلمون قبل ما يؤلف فيه الغربيون اليوم بعد أكثر من ألف سنة • وكان له في ذلك فضلان : فضل نشر

الغناء فى العالم الاسلامى ، ونشر طرق الاتيكيت .وكانت هذه الاشياء كلها تغلى ثمن الجارية أضعاف ما كانت ، وبفضل هذه المدرسة فاقت العراق الشام والحجاز . فقد كان الشام مركز اللهو والظرف فى عهد الأمويين

أما فى العهد العباسى ففاقته العراق . والسبب فى ذلك أمران : الأمر الاول ان العراق كان مصب أموال الدولة فكل قطر يبعث للخليفة ما تبقى من الصرف عليه. والمال هو عصب الحياة يتبعه اللهو حيث كان . فالغناء والشراب انما يكونان حيث يكون الترف . والترف يكون حيث يكون المال . والعراق أكثر البلدان وأعزها جاها . وكل نابغ فى فن ومنه الأدب انما تنفق سوقه فى العراق. ومن نبغ فى غيره ولم يذهب اليه ، خمد ذكره وضاع فنه. فأى مغن مشهور لم يكن فى العراق ، وأى نابغة فى الشعر لم يكن فى العراق ، وأى لؤلؤة كبيرة أو ياقوتة عظيمة أو عقد مرصع بديع لم يرسل الى الخليفة فى بغداد

والأمر الثانى ان العراق كان أكثر بلاد الله خليطا . فقديما تعاقبت عليها الأمم والمدنيات . وفى العصر العباسى كان حاضرة الخلافة ومقصد الناس . وكان مسكن العنصر الارستقراطى من الفرس وعلى مقربة من بغداد ايوان كسرى، وبغداد محط الراحلين من الهنود والعرب والروم وغيرهم. وكل جنس من هذه الاجناس يعرض خير ما عنده وان أدركت سائر الأقطار طرفا من زينة ولهو وغناء وشعر فمن بغداد تقتبس

وكان من حسنات ابراهيم الموصلى زرياب المغنى . فقد

كان تلميذا لاسحاق • وكان يحضر معه مجلس الرشيد ثم اختلف معهففر الى الاندلس • وكانت سبقته شهرته اليها، فاستقبل فيها استقبالا حسنا • ولم يكن زرياب مغنيا فقط • بل كان عالما أديبا أيضا • فنشر فى بلاد الاندلس موسيقاه التى تلقاها عن ابراهيم الموصلى وعلمه فنه •فكان أيضا من حسنات الرشيد بالوساطة

وزان زرياب مجالس عبد الرحمن الداخل كما زان أستاذه الموصلى مجالس الرشيد ، واجتهد زرياب أن يجعل من قرطبة ما رآه فى بلاط الرشيد فى بغداد من فخفخة وعظمة • وأن يحمل عبد الرحمن على البذخ والترف كما كان الرشيد وينقل حضارة بغداد الى قرطبة • فنجح فى ذلك الى حد كبير لأنه كان عظيم الشخصية ، وقد أجرى عليه عبد الرحمن الداخل ثلاثة آلاف دينار فى السنة • وأعطاه عقارا بقرطبة قيمته أربعون ألف دينار • وقربه اليه وجعل مرتبته مرتبة عظيمة

وقد قالوا عنه انه كان يعرف عشرة آلاف لحن بأشعارها ونغماتها • ولم يقتصر على الغناء والشعر • بل كان يعلم الفلك والجغرافيا • وكان قد أخذ عن أستاذه الموصلى فن الظرف واللباقة الذى كان يعلمه الموصلى فى بغداد للجوارى الحسان • ونشر أيضا الذوق فى قرطبة وغير من زى الرجال • فقد كان الرجال يرسلون شعورهم طويلة ويفرقونها فى مقدم الرأس فابتدع لهم طريقة جديدة • فأصبح الزى الرائج بعده أن يحسر الرجل شعره بعد أن يقصره • وكان الاندلسيون يشربون الماء بآنية معدنية ،

فعلمهم أن يشربوه بأقداح من زجاج . ونشر فى الاندلس نوعا من الطعام كان محببا اليه هو الهليون .وابتدع أيضا أنواعا من الاطعمة اللطيفة تنسب اليه : منها النوع المعروف بالزريابية .. فلعله هو الذى حرفه العوام فيما بعد الى زلابيا

☐

وعلى الجملة ، فقد كان من حسنات الرشيد وان لم يعلم نقل حضارته ومجالسه . وترفه الى الاندلس بوساطة زرياب ..

وكان الموصلى كما قلت بلدى البرامكة يغنيهم كما يغنى الرشيد ، ويضع الاصوات فى مدحهم مثل قوله :

ويفرح بالمولود من آل برمك
بغاة الندى والسيف والرمح والنصل
وتنبسط الآمال فيه لفضله
ولا سيما ان كان من ولد الفضل

ولا يبعد أن يكون أبو اسحق الموصلى بحكم بلديته للبرامكة ، كان ينقل اليهم ما كان يدور فى مجلس الرشيد مما يتصل بهم من قريب أو بعيد . ولكن الرشيد أبقى على رأسه لما طاح برؤوسهم ، لانه لم يكن يتدخل فى سلطة الرشيد ولا سلطة البرامكة ، ولان الرشيد كان فى حاجة اليه اذ كان لا يستغنى عن صوت جميل ولحن جميل ، وليس للموصلى فى ذلك نظير

وعلى الجملة ، كان للرشيد ذوق مرهف فى سماع الغناء

ونقله . حتى ليحكون انه سمع الموصلى مرة فقال له انك اخطأت فى لحنك مرتين .. فعجب الموصلى من ذلك وخرج يتحدث به . وكان مما عرف عنه انه أمر بأن يختار له مائة صوت « لحن » أو « دور » وهى التى بنى عليها أبو الفرج الاصفهانى كتابة الاغانى . ثم أمرهم أن يختاروا منها عشرة . ثم أمرهم أن يختاروا من العشرة ثلاثة . فكانت هذه الثلاثة لحنا لمعبد، ولحنا لابن سريج ، ولحنا لابن محرز

الأصمعى وأبو عبيدة

ومجلس آخر هو مجلس جد ولغة وشعر يكون عماده الاصمعى وأبا عبيده والكسائى . فأما الأصمعى فكان رجلا عربى الأصل محتفظا بعربيته فى ملبسه ونبرات صوته ، وقد رحل الى البادية وسمع من أهلها لغة وأدبا ، وعلى الأخص « ملحا » ونوادر ، فكان يتخير منها ما يناسب مجلس الرشيد ويتحدث اليه،ويسأله الرشيد عما يجهله، ويسمع منه ملحه ونوادره ، ويتفقده الرشيد حين يغيب عنه

وأما أبو عبيدة فيهودى الأصل ليس له خفة روح الأصمعى ولا ملحه ولا نوادره ، وانما كان له مهارة فى ناحية أخرى يمتاز بها وهى معرفته بأخبار الأمم من عرب وغيرهم . وكان يسر الرشيد بذكره مثالب بنى أمية . هذا الى علم باللغة واسع وان لم يبلغ مبلغ الأصمعى . سأله الفضل بن الربيع يوما : « كيف يعبر الله سبحانه عن شىء لم تعرفه العرب ولم تره ، اذ قال : « طلعها كأنه

رؤوس الشياطين » • فقال ان العرب اذا عرفت شيئا ولو لم تره ذكرته فى كلامها ، كالشاعر الذى يقول: «ومسنونة زرق كأنياب أغوال »

والغول شيء لم تره العرب • ثم وضع كتابا فى مجاز القرآن

وأما الكسائى فقد تعوده الرشيد من صغره اذ كان هو مربيه وكان فارسى الأصل ، عربى الولاء ، ويمتـــاز عن الأصمعى وأبى عبيدة بالنحو • وكان النحو فى أيامهـــم واسع المدلول فهو يشمل الصرف والمعانى والبيان والبديع ونحو ذلك ، ويظهر انه كان جادا كل الجد ليس كالأصمعى مرحا كل المرح،ولم يكن له علم بالشعر كالذى للأصمعى• فكان الأصمعى يغلبه فى الشعر والكسائى يغلبه فى النحو

□

ولقـــد كانت مجالســـهم مجالس جد من لغة ونحـــو وأخبار وما الى ذلك ، وقد استفاد الرشيد كثيرا من علمهم ونحوهم

ومجلس آخر كان عماده الشعر يجلس فيه أبو العتاهية وأبو نواس ومنصور النميرى ومسلم بن الوليد وأمثالهم، فينشدون له الشعر أحيانا فى مديحه ومدح آبائه الى نحو ذلك

وهو يتخذهم دعاية له ومظهر ترف وأبهة ويجزل لهـم العطاء بقدر ما يجزلون له من الثناء

وأحيانا يكون المجلس مجلس فقه ومحاولة لخروج من مأزق من مآزق القصر ، حول جارية أو حول مشادة بينه وبين زبيدة .. وعماد ذلك أبو يوسف القاضي . كالذى روى أن أميرا من أمراء البيت العباسى اشترى جارية جميلة فطلبها منه الرشيد ، فحلف بالايمان المغلظة أن لا يبيعها. وحلف الرشيد أيضا الايمان المغلظة أن يشتريها وتحرج الأمر بينهما

فاستدعى أبا يوسف فحل الاشكال ، بأن يهب الأمير نصفها للرشيد ويشترى الرشيد نصفها الآخر فكان ذلك. وكان واسع العلم ، متفنن الحيلة لبقا مما جعل الرشيد يعينه قاضى بغداد ، وهذا يجعله قاضى القضاة فينتشر بذلك مذهب أبى حنيفة شيخ أبى يوسف

تنظيم الضرائب

وكان الى جانب ذلك يهديه الى نظم الضرائب وهو الذى وضع له كتاب الخراج ، فنظم له فيه الضرائب وكيف يجبيها . وذكر الرشيد فى أول كتابه هذا ، وقدمه له مع نصائح حكيمة وقورة مثل ما يخاطبه به فيقول : «لا تؤخر عمل اليوم الى غد .. فانك ان فعلت ذلك أضعت » و « ان الأجل دون الأمل .. فبادر الاجل بالعمل ، فانه لا عمل بعد الاجل » : « ان الرعاة مؤدون الى ربهم ما يؤدى الراعى الى رعيته . فأقم الحق فيما ولاك الله وقلدك ولو ساعة من نهار ، فان أسعد الرعاة عند الله يوم القيامة ، راع سعدت به رعيته ، و « لا تزغ فتزيغ رعيتك » . « واياك والأمر بالهوى والأخذ بالغضب » . « واذا نظرت الى أمرين

أحدهما للدنيا والآخر للآخرة فاختر أمر الآخرة على أمر الدنيا ، فان الآخرة تبقى والدنيا تفنى » . « وكن من خشية الله على حذر . واجعل الناس عندك فى أمر الله سواء القريب والبعيد ولا تخف فى الله لومة لائم ، واحذر فان الحذر بالقلب وليس باللسان »

ويذكر أبو يوسف أن رجلا نصرانيا كان يأتى الحسن البصرى ويغشى مجالسه فمات . فسار الحسن الى أخيه ليعزيه فقال له : «أثابك الله على مصيبتك ثواب من أصيب بمثلها من أهل دينك ، وبارك لنا فى الموت وجعله خير غائب ننتظره .. عليك بالصبر فيما نزل بك من مصائب ، وهكذا نرى فى ثنايا الكتاب دررا غالية ونصائح عالية

ومثل : « يا أمير المؤمنين ان الله وله الحمد قد قلدك أمرا عظيما ثوابه أعظم الثواب ، وعقابه أشد العقاب . قلدك أمر هذه الأمة فأصبحت وأمسيت . وانت بغية لخلق كثير قد استرعاكهم الله وائتمنك عليهم وابتلاك بهم وولاك أمرهم . وليس يلبث البنيان اذا أسس على غير التقوى أن يأتيه الله من القواعد فيهدمه وأعان عليه . فلا تضيعن ما قلدك الله من أمر هذه الأمة والرعية . فان القوة فى العمل باذن الله »

والكتاب ليس مقصورا على الضرائب .. ففيه مثلا نصائح متعددة غالية كحسن معاملة الاسارى،وانه اذا أمن المحارب لم يؤخذ منه شىء ، وكالامر بحسن معاملة اليهود

والنصارى ، وان أبا يوسف سأل أبا حنيفة عن اليهودى أو النصرانى يموت له ولد ٠٠ فهل يعزى ، وبم يعزى ، فقال : « نعم يعزى ، ويقال له ان الله كتب الموت على خلقه ٠ نسأل الله أن يجعله خير غائب منتظر ٠ وانا لله وانا اليه راجعون ٠ عليك بالصبر فيما نزل بك لا أنقص الله لك عددا »

وكان على باب قصر الخلد حجرة واسعة يجلس فيها الشعراء والمغنون والفقهاء ، تدور بينهم الاحاديث المختلفة فى الموضوعات المختلفة ، وجميعهم ينتظر دعوة الحاجب لطائفة منهم حسب مزاج الرشيد فى وقته وحسب مايعرض له من أحداث ٠ وأحيانا لا يجد الحاجب من يطلبه فى هذه الحجرة فيذهب اليه فى بيته

واذ كان الرشيد حاكما بأمره فهو أحيانا يرضى لا الى حد وأحيانا يغضب لا الى حد ٠ فكان من دعى يغتسل ويتكفن قبل ذهابه اليه ، مما يعطينا صورة سيئة للحكام فى هذا العهد

مجلس العظة والاعتبار

ومجلس آخر يرجع فيه الرشيد الى نفسه ويدعو من يعظه أو يذهب اليه اذا كان الواعظ لا يغشى مجالس الأمراء ، كالذى روى انه استدعى ابن السماك الواعظ المشهور ، فلما دخل عليه قال له : « عظنى » ٠٠

فقال : « يا أمير المؤمنين ٠٠ اتق الله واحذره ٠ لا شريك له ٠ واعلم انك واقف غدا بين يدى الله ربك ٠ ثم مصروف

الى احدى منزلتين لا ثالثة لهما ، جنة أو نار »

فبكى هرون حتى أخضلت لحيتـــه ٠٠ فأقبل الفضل بن الربيع على ابن السماك ، وقال : «سبحان الله ٠ هل يخالجك شك فى ان أمير المؤمنين مصروف الى الجنة ان شاء الله ٠ لقيامه بحق الله ، وعدله فى عباده »

فقال: «يا أمير المؤمنين: ان هذا - يعنى الفضل بن الربيع- ليس والله معك ولا عندك فى ذلك اليوم ٠ فاتق الله وانظر لنفسك » ، فبكى هرون حتى أشفق الموجودون عليه

وافحم الفضل بن الربيع ، ولم ينطق بحرف حتى خرج من بحضرته ٠ ويأتى الرشيد الفضيل بن عياض ، فيفتـح له الباب هو والفضل بن الربيع ٠ ثم يصعد الفضيل الى أعلى الغرفة مسرعا ويطفىء السراج ٠ ويتجه الى زاوية من زوايا الغرفة فيبحث عنه الرشيد حتى يجده ٠ فيقـــول الفضيل وقد جس يده : « ما ألينها من يد ان نجت غدا من عذاب الله » ٠ ثم يسأله : « لم جئت ٠٠ لقد حملت عـــلى نفسك وجميع من معك حملوا عليك ٠ ولو سألتهـم عند انكشاف الرقاب عنك وعنهم أن يحملوا عنك نقصا من ذنب ما فعلوا ولكن أشدهم حبا له أشدهم هربا منك »

ثم قال ان عمر بن عبد العزيز لما ولى الخلافة دعا سالم ابن عبد الله بن عمر ، ومحمد بن كعب القرظى ، ورجاء بن حيوة، وقال لهم : « انى قد ابتليت بهذا البلاء فأشيروا على ٠٠ فعد الخلافة بلاء ، وعددتها أنت وأصحابك نعمة ٠فقال له سالم : « ان أردت النجاة غدا من عذاب الله فصـم عن الدنيا وليكن افطارك فيها على الموت » ٠ وقال له محمد بن

مطعم : « ان أردت النجاة غدا من عذاب الله ، فليكن كبير المسلمين لك أبا ، وأوسطهم لك أخا ، وأصغرهم لك ولدا. فبر أباك وارحم أخاك وتحنن على ولدك »

وقال له : « رجاء ، ان أردت النجاة غدا من عذاب الله . فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك ، واكره لهم ما تكره لنفسك » . فبكى هرون الرشيد بكاء شديدا حتى غشى عليه .. فقال الفضل بن الربيع : « ارفق بأمير المؤمنين». فقال الفضيل: « يا بن الربيع قتلته انت وأصحابك وأرفق أنا به » . فلما أفاق قال : « زدنى » ..

فقال : « يا أمير المؤمنين .. بلغنى ان عاملا لعمر بن عبد العزيز شكا اليهالسرف فكتب اليه عمر يقول :«يا أخى اذكر سهر أهل النار فى النار وخلود عباد الله فيها».فلما قرأ كتابه طوى البلاد حتى قدم عليه . فقال له عمر : « ما أقدمك ؟ » . قال : « خلعت قلبى بكتابك ،لاوليت لك ولاية أبدا حتى ألقى الله »

وعاد الرشيد أيضا فبكى بكاء شديدا .. ثم قال : « زدنى » . فقال : « يا أمير المؤمنين ان جدك العباس عم النبى صلى الله عليه وسلم جاء فقال : « يا رسول الله .. امرنى على إمارة » .. فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : « يا عم .. نفس تحييها خير من امارة لا تحصيها .. ان الامارة حسرة وندامة يوم القيامة .. فان استطعت أن لا تكون أميرا فافعل »

فبكى الرشيد .. ثم قال : « زدنى » . فقال : « ياحسن الوجه ان استطعت أن تقى هذا الوجه من النار فافعل ،

واياك أن تصبح أو تمسى وفى قلبك غش لرعيتك ٠٠ »

فبكى الرشيد أيضا٠٠ ثم قال للفضيل : « أعليك دين؟» قال : « دين لربى يحاسبنى عليه » ٠٠ فقال هرون : « انما أعنى دين العباد » ٠ فقال : « ان ربى لم يأمرنى بهذا ٠ وانما أمرنى أن أصدق وعده وأطيع أمره » ٠ فقال له الرشيد : « هذه ألف دينار خذها لعيالك ، وتقو بها على عبادة ربك »

فقال الفضيل : « سبحان الله ٠٠ أنا أدلك على النجاة وتكافئنى بمثل هذا ٠ سامحك الله » ٠ ثم صمت ٠٠



لهو الرشيد



صورتان

هناك فرق كبير بين صورة الرشيد التى يمثلها المؤرخون أمثـــال الطبرى وابن خلدون وأبى يوسف فى الخـراج ، وصورته التى يصورها ألف ليلة وليلة ، والاغانى ، واعلام الناس فيما وقع للبرامكة مع بنى العباس ... الخ

فصورة المؤرخين تصور الرشيد رجـل جد فيه شيء من اللهو ، والكتب الاخيرة تمثله رجل لهو فيه شيء من الجد . وربما كانت صورة المؤرخين أعدل لان الآخرين أكثر حرية وتساهلا فى الرواية وأميل الى اللهو ودعوة الناس اليـه ، وأميـــل الى التزيد من ذكر عطاءات الرشـــيد والبرامكة ونحوهم ، لعلهم يستفيدون من أمراء عصرهم بعض من أعطى من يحكون عنه . فانا لو حسبنا حساب المال الذى أعطاه الرشـــيد والبرامكة على قولهم ، لما كفت الدنيـا لتحقيق ما قالوا .. فكيف ومالهم محدود ...

على كل حال كان للرشيد من غير شك جانب من اللهو ، وللهو ذلك العصر تاريخ طويل يبتدىء من الدولة الأموية . ولـكن الامويين كانوا يعملون المـــلاهى لاذواقهم البسيطة العربية .. كالذى روى ان الحجاج أولم فى اختتان بعض ولده ، فاستحضر بعض الدهاقين يسأله عن ولائم الفرس . وقال له : « أخبرنى بأعظم صنيع شهدته »

فقال له : « نعم ·· أيها الأمير ·· شهدت بعض مرازبة كسرى ، وقد صنع لأهل فارس صنيعا وأحضر فيه صحاف الذهب على أخونة الفضة ·· أربعا على واحد ، وتحمله أربع وصائف ، ويجلس عليه أربعة من الناس · فاذا طعموا اتبعوا أربعتهم المائدة بصحائفها ووصائفها » ···

فقال الحجاج يا غلام انحر الجزور كأنه كره هذا الوصف واستعظمه

وكان الأمويون على كل حال يعدلون العادات الفارسية والاغانى الفارسية ونحو ذلك بذوقهم العربى · أما العباسيون فكانوا يأخذون عادات الفرس كما هى بحذافيرها ·· اتخذوا النيروز لهم عيدا ولم يكن له فى عصر الامويين شأن له بال · وفى عصر العباسيين كانت تهدى فيه الهدايا ، وتوزع فيه اللطائف ويحتفلون به كما يحتفلون بالعيد الكبير والصغير ·· فلما جاءت الدولة العباسية كانت الأمور تحتاج الى جد لا لهو فيه ، ولولاه لضاعت الدولة من أيديهم · فكان أبو العباس السفاح مثلا أول الخلفاء العباسيين ، جادا لا يلهو ، ولما تزوج أم سلمه حلف لها أن لا يتزوج عليها ولا يتسرى

وحاول بعض المقربين اليه أن يحملوه على اللهو فأبى وأبعدهم ، لأنه شعر بكثرة ما عليه من تبعات لا تمكنه من أن يلهو ساعة

وجاء بعده رجل الدولة أبو جعفر المنصور . فكان مثل أخيه جادا لا يلهو · فيروى الطبرى أنه لم ير فى دار المنصور لهو قط ولا شيء يشبه اللهو واللعب والعبث · ولما سمع شعر طريف بن تميم العنبرى :

ان قناتى لنبع لا يؤيسـها
غمز الثقـاف ولا دهن ولا نار
متى أجر خائفا تأمن مسارحه
وان أخف آمنـا تقلق به الدار
ان الامور اذا أوردتها صـدرت
ان الأمور لها ورد واصـدار

قال : « أنا أحق بأبياته هذه » . وأمر أن يحدو الحادى له بهذه الابيات ، فأمر باعطائه درهما واحدا ...

فقال الحادى : « يا أمير المؤمنين حدوت بهذه الأبيـات لهشام بن عبـد الملك ، فأمر لى بعشرين ألف درهم وتأمر لى أنت بدرهم »

قال : « انا لله .. ذكرت ما لم نحب أن تذكره . وصفت رجلا طالما أخذ مال الله من غير حله ، وأنفقه فى غير حله .. يا ربيع ، أشدد يديك به حتى يرد المال

فما زال الحادى يبكى ويتشـفع حتى كف يده . وكان لا يشرب ولا يحب الشراب . وكل ما فعل انه أذن لبختيشوع الطبيب أن يشرب بحضرته . واشتد الأمر بالناس من كثرة جده وقسوته . ولما رأوا المهـدى يلهو بعض الشىء ويلعب سرى عنهم كما سرى عن الناس بموت عمر وتولية عثمان . وقد كان المهدى كريما لا يكتنز ، ويحب الفنون الجميلة من غناء وشـعر . وبدأ يسمعهم من وراء الستار حفظا لهيبة الخلافة . ثم جره السمار الى أن يحضر مجلس المغنين بدعوى أن اللذة فى مشـاهدة السمر أدعى الى السرور . كما كان يكثر من الجوارى ويحب شراءهن ولم يكن يشرب النبيـذ

ولكن يسمح للناس أن يشربوا فى حضرته . وملأ بشار بغداد وغيرها بشعره الخليع من مثل :

عسر النساء الى مياسرة

ومثل :

قد عشت بين الريحان والراح والمز
هـر فى ظـل مجلس حسن
وقد ملأت البلاد ما بين قيغو
ر الى القيروان فاليمن
شعرا تصلى له العواتق والشيـ
ـب صلاة الغواة للوثن
ثم نهانى المهدى فانصرفت
نفسى صنع الموفق اللقن
فالحمد لله لا شريك له
ليس بباق شىء على الزمن

اسراف الرشيد

ثم انتقل اللهو فى عهد الرشيد نقلة جديدة . فأسرف فيه اسرافا لم يعرفه خليفة من قبله . وقد منحه الله عاطفة قوية ينسى بها نفسه متى وجدت دواعى الأنس . وساعده على ذلك سلطان البرامكة فى زمنه ونقل عادات الفرس ، وما نقل عنهم من ترف ونعيم . وكان صديق الرشيد جعفر البرمكى شابا مسرفا على نفسه يلهو ما شاء له اللهو . وكلاهما كان اذا نحا ناحية يصل فيها الى نهايتها : حتى ليخيل لمن يقرأ مثل كتاب الاغانى انه لا يعرف الا اللهو .

ويخطو خطوة أخرى ، فيشرب ويسرف فى الشراب لا كما كان يفعل أبوه ..

على أنه والحق يقال لم يكن لاهيا كل اللهو كما تصوره الاغانى .. ولا جادا كل الجد كالذى يصوره بعض الناس ، وانما كان جادا لاهيا معا . تثور عاطفته الدينية أحيانا فيصلى مائة ركعة ويبكى من الوعظ ويحج ماشيا . وتثور عاطفته الدنيوية حينا فيسمع الغناء ويشرب الشراب . ويقول الشعر وتثور عاطفته الحربية أحيانا فيتولى قيادة الصائفة والشاتية . فمن الناس من يجد ويلهو .. فاذا جاء وقت الجد أسرف فيه ، واذا جاء وقت اللهو أسرف فيه . ويقول مع القائل :

ولله منى جانب لا أضيعه ... وللهو منى والخلاعة جانب

فكان الرشيد من هذا الصنف يحارب فيحسن الحرب ، ويلهو فيحسن اللهو ، وكان أبو نواس يعجب الرشيد حين تشعشع الخمر فى رأسه . فيسمعه يصف الخمر ويصف لعبها بالعقول كالذى يقوله :

اسقنى يا بن أدهما ... واتخذنى لك ابنما
اسقنيها سلافة ... سبقت خلق آدما
فهى كانت ولم يكن ... ما خلا الارض والسما
رأت الدهر ناشئا ... وكبيرا مهرما
فهى روح مخلص ... فارق اللحم والدما
فاسقنيها وغن صو ... تا ــ لك الخير ــ أعجما

أو يقول :

يا نديمى رد بالله ... مشاشى وعظامى

اسقنى بالكاس والطا س جميعا وبجـــام
واســقنى حتى ترانى لا أرجى للقيـــام

فالرشيد يستخدمه كنديم على الشراب يطرى له شرابه ويحضه على الاكثار منه ، فهو كالنغمة المرحة المستهترة على الوتر المرح الطروب

وأما منصور النميرى فيطرب الرشيد حين تثور عاطفته على الأمويين والعلويين ، فيحتاج الى من يغنيه بذمهم جميعا ومدح آل العباس عامة ومدحه خاصـــة وهكذا ، مما نوع الشـــعر وفرعه ، وجعـل باب المديح فى الأدب من أكبر الابواب وأطولها

وكان يجيز من شرح له مسألة نحوية أو فقهية أو أدبية، كما يجيز الكثير لمن غنى فأجاد ، ومن غنت فأحسنت

يسمع قول أبى العتاهية :

خانك الطـرف الطموح أيهـــا القلب الجمـــوح
لدواعى الخـــير والشـــر دنو ونـــزوح
هل لمطـــلوب بذنب توبة منـــه نصـــوح
كيف اصـــلاح قـلوب انما هن قـــروح
أحسن الله بنـــا ان الخطـــايا لا تفـــوح
بين عيـــنى كـل حى عـــلم الموت يلوح
كلنا فى غفـــلة والمـــوت يغـــدو ويروح
لبنى الدنيـــا من الدنيـــا غبـوق وصـــبوح
رحـــن فى الوشى وأقبلـــن عليـهن المسـوح
كل نطـــاح من الدهـــر له يـــوم نطـــوح
نح عـــلى نفسك يا مسكـــين ان كنت تنـــوح

لتموتن وان عمــــرت ما عمـــــــر نوح

فأبو العتاهية يعجب الرشيد شعره اذ كان به نزعة الى الزهد واحتقار ما عليه من ترف ونعيم ... فيسمعه يقول :

اذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل
خــــلوت ولكن قل على رقيب
ولا تحسبن الله يغفــــل ما مضى
ولا ان ما يخفى عليـــــــه يغيب
لهونا لعمـــــــر الله حتى تتابعت
ذنوب عـــلى اثارهن ذنــــــوب
فيـــاليت ان الله يغفــر ما مضى
ويأذن فى توباتنــــــا فنتــوب
وان امرءا قد سار خمسين حجة
الى منهـل من ورده لقـــــريب
فاحسن جزاء ما اجتهــدت فانما
بقرضك تجزى والقروض ضروب

وهكذا من نصائح يميل اليها الرشيد فى بعض الاوقات فيتعظ بها . وقد يبكى منها فيكون أبو العتاهية فى ذلك كالنغمة الحزينة على وتر حزين . فيبكى الرشيد وينتحب. ويسمع نكتة من ابن أبى مريم فيضحك حتى يستلقى على قفاه وهكذا

ويقوم خارجى عليه فيقتل أبطاله وينتهب أمواله مرارا. ويجهز اليه الرشيد جيشا قويا فيحاربونه ويغلبونه.ويأمر الرشيد باحضاره فلما يمثل بين يديه ، يقول الرشيد : « ما تريد أن أصنع بك ؟ » . قال : « ما تريد أن يصنع الله بك اذا وقفت بين يديه »

فيأمر باطلاقه .. فلما خرج ، قال بعض جلسائه : « يا أمير المؤمنين .. رجل قتل أبطالك وانتهب أموالك تطلقه بكلمة واحدة . فهذا مما يجرىء عليك أهل الشر »

فقال الرشيد : « ردوه » . فعلم الرجل انه قد تكلم فى أمره فقال : « يا أمير المؤمنين لا تطعهم . فلو أطاع الله فيك الناس ما ولاك عليهم »

فيعفو ثانيا ...

ويخرج خارجى آخر ليس له مثل حججه وبراعته فيقتل أبطاله ويدوخ جيوشه . فيحضر اليه والرشيد على سرير الموت . فيأمر بقتله ويقول : « والله لأقتلنك ولو كنت فى النفس الاخير» وهكذا تتجاذبه عواطف الخير والشر والانتقام والعفو . والناس يقلدونه

قدوة الرعية

فما صدقوا أن رأوا الرشيد يقيم مجالس اللهو ويستمع الى ابراهيم الموصلى وغيره .. ويشهد حفلات الرقص حتى قلدوه فى ذلك . فالغنى الكبير ، والوسط الحال ، والتاجر الواسع الثراء ، يقيمون حفلات على قدرهم مثله . وقد رزق الله بنى العباس كثرة فى العدد من كثرة ما يصلون الى الاحرار والاماء . حتى لقد أحصى عدد أولاد العباسيين فكانوا أكثر من ثلاثين ألفا كانوا أو أكثرهم أغنياء مترفين . يقلدون رئيسهم الرشيد ويفعلون فعله فى اللهو والترف

وقد حدثونا ان عبد الله بن العباس بن الوزير الفضل ابن الربيع كان مغنيا ماهرا ، وماجنا مستهترا .. يصطبح

فى حدائق النرجس ويعيش عيشة لهو وخلاعة . وأمثاله كثيرون يطول ذكرهم

وسرت العدوى من أولاد الاغنياء الى الطبقة الوسطى .. وبالغوا فى الموائد وتنسيقها وألوان طعومها . ولكن الحق يقال ان الحياة الاجتماعية فى بغداد كانت أشبه شىء بالحياة الاجتماعية الآن فى مصر . غنى مفرط وفقر مفرط . فالامراء وكبار التجار يجرى المال فى أيديهم جرى الماء . والعلماء وصغار الفلاحين وصغار التجار لا يجدون ما يأكلون الا ان يتصل عالم بخليفة أو أمير فيدر عليه الرزق . فالمعيشة لم تكن ديمقراطية على النحو الذى نألفه اليوم فى الديمقراطية يستطيع أن يتكسب فيه العالم من الشعب

انما كانت حياة ارستقراطية ان لم يستعن العالم أو الشاعر بأمير مات من الجوع . ولذلك اشتهر قول القائل فى بغداد :

بغداد دار طيبها أخذ	نسيمها منى بأنفاس
تصلح للموسر لا لأمرى	يبيت فى فقر وافلاس
لو حلها قارون رب الغنى	أصبح ذا هم ووسواس
هى التى توعد لكنها	عاجلة للطاعم الكاسى
حور وولدان وكل ما	تطلبه فيها سوى الناس

ويقول آخر :

أذم بغداد والمقام بها	من بعد ما خبرة وتجريب
ما عند سكانها لمختبط (١)	خير ، ولا فرحة لمكروب
يحتاج باغى المقام بينهم	الى ثلاث من بعد تثريب

(١) المستجدى

كنـــوز قارون أن تكون له وعمر نوح وصـــبر أيوب

ولذلك زهد الناس فى هذه الحالة السيئة ، ونزع بعضهم الى الزهد والتصوف . وقد شكا أبو العتاهية من سوء هذه الحالة،وصور بؤس الشعب فى شعره تصويرا لطيفا فقال:

من مبــلغ عنى الاما م نصـــائحا متواليـة
انى أرى الاســـعا ر أسـعار الرعية غالية
وأرى المكاسب نزرة وأرى الضرورة فاشـية
وأرى غمـــوم الدهـــر رائحة تمر وجائية
وأرى اليتـــامى والارا مل فى البيوت الخالية
مـــن بين راج لم يزل يسمو اليك وراجيـــة
يشكون مجهدة بأصوا ت ضعـــاف عاليـــة
يرجون رفدك كى يروا مما لقوه العافيـــــة
من يرتجى للنـــاس غـــيرك للعيـون الباكيـة
من مصبيـات جـوع تمسى وتصـبح طاوية
مـن يرتجى لدفاع كر ب ملمـة هى ماهيـــة
مـــن للبطون الجـائعـــات وللجسوم العارية
يا ابن الخلائف لافتنـــت ولا عدمت العافيـة
ان الاصـــول الطيبـــات لها فروع زاكيـــة
ألقيت أخبـــارا اليـــك عن الرعية شـــافية

▭

وحتى الأغنيـــاء والمترفون لم يكونوا منعمـين بغناهم وترفهم كما ينبغى ، لأنهم كانوا عرضة فى كل وقت للقتل والمصادرة

وقد صدق العتابى ، اذ قيل له : « لم لا تقترب بأدبك الى السلطان ؟ » . فقال : « لانى رأيتـه يعطى عشرة آلاف فى غير شىء ويرمى من الســور فى غير شىء ، ولا أدرى أى الرجلين أكون »

ويصف لنا المؤرخون لهذا العصر فرقة تسمى المتطوعة تنكر ما فشا من الفسق فى بغـداد . وتروى لنا « طبقات الصوفية» انتشار الزهد والفقر بين المتصوفين فىهذا العصر وذلك رد فعل لحياة اللهو بين الاغنياء والمترفين ، ومن أراد أن يعيش ولم يتصل من العلماء بأمير أو وزير عاش فقيرا بائسا ، كالخليل بن أحمد يقول : « اذا أغلق على باب حجرتى كفيت هموم الدنيا » .. وجاءه يوما رسول الخليـفة فأراه الخليل كوزا مملوءا بالماء وكسرة خبز جافة . وقال : « من كان عنده هذان لم يحتج الى خليفة أو أمير »

وحكت لنا كتب التراجم أخبارا كثيرة عن علماء زهدوا فى الامراء وعطايا الخلفاء ، فكان مصـيرهم الفقر المدقع .. كالذى حكوا عن عبد الوهاب المالكى انهكان يجتمع على بابه المئات من العلماء ، ولما أراد الرحيل الى مصر ودعه عدد كبير .. فقال : « والله لو وجدت فى بغداد من الخبز ما يكفينى ما انصرفت عنكم وعنها » . فلما وصل الى مصر وتيسرت حاله حضرته الوفاة ، فقال : «سبحان الله..اذا عشنا متنا»

وفى كتاب الفلاكة والمفلوكين أمثلة كثيرة من هذا القبيل

الاسراف فى المديح

وهذا هو السبب فى أن الشعر الكثير فى الأدب العربى

هو شعر المديح أو بعبارة أخرى هو شعر الاستجداء . وأما غيره من الشعر فقليل بالنسبة اليه. وهذا أيضا هو السبب فى أن الظاهرين من الشعراء والادباء هم شعراء بغداد

وأما من عداهم فمغمورون ، ولذلك أيضا كان العالم الدينى يكاد يكون أفقر العلماء . لان الدين يمنعه عن الابتذال . ولذلك تقرأ تراجمهم فترى فقرا مدقعا وبؤسا واضحا ورضا بالقليل مع الافراط فى الجوع واحتمال الفقر

وقد سبب الافراط فى الغنى والافراط فى الفقر ،حركة تشبه الاشتراكية اليوم . فقد روى المسعودى ان محمد بن سليمان قريب الرشيد كان يغل كل يوم مائة ألف درهم ، فكان يركب يوما بالبصرة وسوار القاضى يسايره فى جنازة ابنة عم له . فاعترضه رجل وقال له : « يا محمد ، أمن العدل أن تكون غلتك فى كل يوم مائة ألف درهم وأنا أطلب نصف درهم فلا أقدر عليه ؟ »

ثم التفت الى سوار ، فقال : « ان كان هذا عدلا فأنا أكفر به » فأسرع اليه غلمان محمد وكفوه عنه. وايا ما كان، فنحن لو نظرنا الى الرشيد بعين زماننا لمقتناه . يفعل ما يشاء ، ولا يسأل عما يفعل . حاكم مستبد ، لا يقيده برلمان ولا يتقيد بعدل دائم .. يكثر من مصادرة الاموال ، ويوزعها بالهيل والهيلمان على من لها بأهل ومن ليس لها بأهل . والا فما بال أموال الرعية الفقراء المساكين .. تصرف منها آلاف من الدنانير على بيت من الشعر قيل فى مدحه . أو صوت جميل لحن له . أو على مسألة نحوية تافهة لا تساوى شيئا . أو على جارية جميلة تحسن الغناء

شارلمان والرشيد



تجاوز الدين وأوامره

وكان الخلفاء من عهد معاوية ومن بعده قد تعدوا الاسلام وأوامره الى رغباتهم وميولهم · ولم يشذ عن هـذا الا عمر ابن عبد العزيز·حيث أحاط نفسه بعشرة من كبار التابعين والفقهاء العـالمين بأصول الاسـلام حتى لا يفعل فعلا الا استشارهم وعمل برأيهم · أما من عداه من عهـد معاوية فكانوا يعملون برأيهم هم · وافق روح الاسلام أو خالفه

فليس الرشـيد بدعا من الخلفاء وانما هو نتاج كل من قبله · يسير سيرتهم ويتبع ما تمليه عليه بيئته ·· فلو ان خليفة فى العصر الحاضر أمر بقتـل رجل من رعيتـه لكان جرما شنيعا يحز فى صدور الناس ، ولا ينسونه

نعم ·· يجب أن تقاس الاخـلاق فى كل زمان ومكان بحسبها · فلو خرجت امرأة سافرة فى عصرنا ما عد هـذا جريمة · بل لو خرجت محجبة لعد حجابها جريمة·والأمر على العكس منذ خمسين عاما فلو خرجت امرأة حرة سافرة لانتقدها الناس وعدوا ما تأتى به منكرا كبـيرا ·· وهكذا تتطور الاخلاق بتطور الزمان

وكان الرجل يعير بأنه لم يعرف أبوه ·· كم لاقى زياد من العناء لمثل هذا ، وهو اليوم فى بعض بلدان أوربا يعامل كمعاملة من عرفت آباؤهم

كل هذا يخفف من الحملة على الرشيد وأمثاله فى زلاتهم كسفكه دماء البرامكة من غير محـــاكمة ولا معرفة بجرم ، ومثل مصادرته للأموال وبعثرته مما صـادر ونحو ذلك . والله لا يؤاخذ الناس الا حسب ظروفهم وبيئاتهم ومقـدار عقولهم

علاقة الرشيد بشارلمان

ومما زاد فى شهرة الرشيد علاقته بالدول الغربيـــة ، وتوارد الوفود عليه وارسالها . فقد تحالف مثلا مع شارلمان امبراطور فرنسا وألمانيا وايطاليا وسفرت بينهما سفارات طويلة الأمد مرتين : الاولى استـغرقت ما بين عامى ٧٩٨ و ٨٠١ وكانت السفارة فى المرة الاولى مؤلفة من سفيرين افرنجيين ومعهما مترجم يهودى يعرف العربيـــة يقال له اسحق .. وكانت السفارة تتضمن أشياء ثلاثة . أن يعهد الرشيد الى شارلمان بالقيام بمصالح العباسيين فيما يفتحه شارلمان من بلاد الاندلس . وأن يثير شارلمان الحزب القائم بالدعوة العباسية فى الاندلس وذلك لاشتراك الطرفين فى عداء الاندلس . الرشيد لخروج بنى أمية عليه وشـــارلمان لأن الاندلس اقتطعها المسلمون من دولته . ذلك أن السفاح لما شدد النكير على الأمويين وقتلهم فر عبد الرحمن الملقب فيما بعد بالداخـل هائما على وجهه هو وأخوه واختفى فى بعض البلاد . فلما أحس عبد الرحمن وأخوه بالعباسـيين يقدمون فرا وعبرا النهر . فوعدهما العباســيون بالنجاة وصدق أخوه . ورجع فذبح

ولم يصدق عبد الرحمن ، وسار الى فلسطين ومنها الى

افريقية ، ثم الى الاندلس • وأمكنه أن يخضعها لأمره ، منتهزا فرصة وجود الخلاف فى البلاد والنزاع القبلى بين اليمنيين والمضريين

وأخيرا استولى على قرطبة ، ثم بقية الأندلس • ونشر الأمن فى أرجائها • وغاظ ذلك المنصور ، ثم الرشيد من بعده •• اذ كانت الاندلس قد خرجت من أيدى العباسيين

وفى سنة ٧٧٧ ائتمر زعماء العرب فى الشمال الشرقى من الاندلس وألفوا كتلة قوية وانتقضوا على عبد الرحمن• وتعاقدوا مع شارلمان الذى كان مهادنا للرشيد ومناصرا له فرحب الرشيد بهذه الفكرة

ولكن زحف شارلمان سنة ٧٧٨ باء بالفشل عندما أغلقت مدينة سراقوسطة فى وجهه•وهجم على جيشهسكان الجبال• حتى فقد كثيرا من أتباعه ومتاعه • واستعان عبد الرحمن على الانتصار على شارلمان بجيش منظم أحسن تنظيم ومدرب أحسن تدريب • وكان يبلغ نحو أربعين ألف مقاتل من البرابرة الذين استجلبهم من أفريقيا • فلما خذل شارلمان يئس الرشيد منه ومن الاستيلاء على الأندلس !

وكان الرشيدكأبيه وجده شديد العداوة للأمويين ومنهم بنو أمية فى الاندلس ، وشارلمان لحبه فى الفتح وأمنيته فى رد الاندلس الى مملكته بعد أناغتصبت منالمملكة المسيحية• والأمر الثانى أن يسهل الرشيد لزوار بيت المقدس من المسيحيين الكاثوليكيين ويعفيهم من القيود والتكاليف التى وضعها الرشيد اذ ذاك على أهل الذمة

أما السفارة الثانية ، فقد أوفدها شارلمان الى الرشيد

ولقد أحصيت التحف والهدايا التى بعث بها الرشيد الى شارلمان،فكانت بوقا من العاج وهو محفوظ للآن فى مدينة آج . وسيفا وصينية من الذهب محلاة بقطع من الزجاج المختلفة الألوان ، وعليها صورة لكسرى الاول مصنوعة من البللور ــ محفوظة فى دير « سنتدفيس » وقطعة من قطع شطرنج شرقى محفوظة فى الدير نفسه ، وابريقا من الذهب محفوظا فى دير كنتون فللس ، وثمانى شوكات من التاج الذى يقال انهم ألبسوه رأس المسيح عليه السلام عند صلبه

كما يحدثوننا ان الرشيد أرسل الى شارلمان فى السفارة الاولى هدية فيها فيل ، يسمى أبا العباس ، وهدايا أخرى . وقد أخذ هذا الفيل شهرة واسعة لأن الفرنج لم يكونوا رأوا فيلا قط

وكان الرشيد قد أتى به من الهند ، وبعد ذلك أرسل شارلمان وفدا الى بلاط الخليفة هارون الرشيد ، وقد قالوا انه مر فى طريقه بالاراضى المقدسة ثم سار الى بلاط الخليفة فى بغداد

وقد أرسل الرشيد وفدا آخر الى شارلمان يحمل هدايا ثمينة منها رخام ملون بألوان متنوعة جميلة ، ومنسوجات من الحرير والكتان ، وروائح عطرية وبلسم وساعة مائية وأوان نحاسية . وقد أقام السفراء عند الامبراطور مدة ، ثم أرسلوا الى ايطاليا حيث أبحروا من هناك الى المشرق

وقد أنكر بعض الباحثين من الفرنج حكاية هذه الوفود بدعوى ان مؤرخى العرب لم يذكروها فى كتبهم ، ولكن هذه الحجة لا تقنع . لان كثيرا من الحوادث حدثت فى أوربا



الامبراطور شارلمان يستقبل وفد هرون الرشيد الذى جاءه بالهدايا

ولم يذكرها مؤرخو العرب لجهلهم بها • خصوصا وان بقايا هذه الهدايا محفوظة الى اليوم ، ومن المؤكد انها مصنوعة فى الشرق• وليس من المعقول أن يشتريها اسحاق اليهودى من ماله وينسبها الى الرشيد •• فاسحاق أعجز وأحزم من أن يفعل هذا

وأحياناكانت تصفو العلاقات بين الرشيد والبيزنطيين• فقد روى سفير بيزنطى ان امبراطور القسطنطينية أوفد الى الرشيد وفدا فاستقبل على بضعة فراسخ من بغداد • ومر الوفد أمام جيش مؤلف من مائة وثمانين ألفا مدججين بالسلاح • وقدم للوفد أفخم الهدايا من الخليفة الرشيد ، منها مائة جواد أصيل مجزة وثياب فاخرة ، وفرش له فى الطريق ثمانية وعشرون ألف طنفسة • تغطى أرض الطريق •• وزين عدد كبير من السفن كانت تمخر عباب نهر الدجلة وانه سمع بداخل القصر زئير الاسود ورئى معها حراسها الافريقيين ، مما أدهش الوفد

وكانت هذه الوفود سواء فى القسطنطينية أو عند شارلمان تنشر الاحاديث العجيبة عما شاهدوه •• فيعظم فى عينيهم شأن الرشيد وشأن الشرق

وكانت عقلية الرشيد اذ ذاك أنضج وأوعى من عقلية الغرب ••• وكانت صناعتهم أدق وأجمل حتى ليحدثونا ان الغربيين عجبوا عجبا شديدا عند رؤيتهم البوصلة والساعة الدقاقة ، وظنوا من عجبهم أن فيهما شيطانين يحركانهما ويأتيان بهذه الاعاجيب

وكان من مقتضى هذه الحضارة التى شاهدناها فى القصور

والعمارات والاسواق والهدايا ، أن تصل الينا آثارها مما يدلنا عليها ولكن غزوة التتار التى جاءت فى آخر الدولة العباسية وقضت عليها أذهبت آثارها وأضاعت كنوزها ٠ فقد كانت غزوة عنيفة جامحة لم يسبق لها فى التاريخ مثيل ٠٠ قال السيد أمير على :

« ان هولاكو أصدر عند زحفه على بغداد أمره بنهب المدينة وذبح أهلها ، حتى خرج الشيوخ والاطفال والنساء من المنازل حاملين المصاحف على أكفهم وهم يتوسلون ويتضرعون الى الجنود بشكل يفتت الاكباد ٠ ولكن الغزاة لم يعبأوا باستغاثتهم ، ووطئوا أجسامهم بحوافر خيولهم ٠ وهجموا على نساء الاشراف والنبلاء

أما الكنوز الادبية والفنية ومخلفات المدنية الاسلامية فقد دمرت تدميرا فى خلال بضع ساعات ٠ وطفقت شوارع المدينة تجرى فيها الدماء ثلاثة أيام حتى اصطبغ ماء دجلة بالدم لعدة أميال ٠ وظل التخريب والذبح وانتهاك الحرمات ستة أسابيع وتقوضت القصور والجوامع اما بالنار أو بالمعاول ٠٠ لانه كان يغيظهم ما فيها من قبابها الذهبية وأشعلوا النار فى نتائج قرائح العلماء والادباء ، وألقيت الكتب بعضها فى النار وبعضها فى نهر دجلة

وهكذا فقدت كنوز خمسة قرون وفنيت زهرة الأمة فناء تاما ٠٠ »

عهد الرشيد لولديه

واهتدى الرشيد أخيرا الى أن يعهد بالخلافة للأمين

والمأمون ، ويقسم البلاد بينهما ٠٠ وبعدهما الى المعتصم ٠ وفاته أن الملك لا يحتمل الاشـــتراك ٠٠ فلابد أن يتخاصم الشريكان أو الشركاء ويتغلب أحدهم ٠ وهذا ما كان بعده

ففى سنة ١٨٦ هجرية حج الرشيد ومعه المرشـــحان للخلافة الأمين والمأمون وقواده ووزراؤه وقضاته٠فبعد أن قضى مناسك الحج كتب كتابين ، أجهد الفقهاء والقضـــاة أنفسهم فيهما ليزيدوا الكتابة توثيقا ٠ أحـدهما على محمد الأمين يشترط عليه الوفاء بأن يولى المأمون خراســان وما اليها ، ويوصى للمأمون فيه بأموال وضياع وغلات وأدوات الحرب

والثانى يحوى صورة البيعة لهما وهى التى أخـذها من الخاصة والعامة ، وجعل الكتابين فى البيت الحرام تأكيـــدا لهما ٠ وعليهما توقيع الوزراء والقادة والأمراء ووجوه بنى هاشم والقضاة والفقهاء بعد أن أمر الرشيد بقراءة الكتابين ووقع عليهما ، واعــترضت زبيدة يوما أم الأمين باعطاء أدوات الحرب للمأمون ، فقال لها : « انى أخاف على المأمون من الأمين ، ولا أخاف على الأمين من المأمون »

واطمأنت نفس الرشيد بعض الشىء

كتاب المأمون للرشيد

وهذا نص الكتاب الذى كتبه المأمون لأبيه الرشيديتعهد فيه بتنفيذ العهود التى أعطيت له ما نفذ الأمين العهـــود عليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ·· هذا كتاب كتبه عبد الله ابن هرون أمير المؤمنين فى صحة من عقله وجواز من أمره وصدق نيته ، فيما كتب فى كتابه هذا ومعرفته بما فيه من الفضل والصلاح له ولأهل بيته وجماعة المسلمين

« ان أمير المؤمنين ولانى العهد والخلافة وجميع أمور المسلمين فى سلطانه بعد أخى محمد بن هرون أمير المؤمنين وولانى فى حياته وبعد موته ثغور خراسان وكورها وجميع أعمالها ، من الصدقات والعشر والبريد والطرز وغير ذلك · واشترط لى على محمد بن هرون أمير المؤمنين الوفاء بما عقد لى من الخلافة والولاية للبلاد والعباد بعده · وولاية خراسان وجميع أعمالها · لا يعرض لى فى شىء مما أقطعنى أمير المؤمنين أو ابتاع لى من الضياع والعقد والدور والرباع · أو ابتعت لنفسى من ذلك وما أعطانى أمير المؤمنين هرون من الاموال والجوهر والكساء والمتاع والدواب لا يحاسبنى فى شىء ، ولا يدخل على ولا على أحد كان معى ومنى ، ولا عمالى ولا كتابى ومن استعنت به من جميع الناس مكروها فى نفس ولا دم ولا شعر ولا بشر ولا مال ولا صغير ولا كبير · وكتب بذلك كتابا وكتبه على نفسه

« وشرطت لعبد الله هرون أمير المؤمنين وجعلت له على نفسى أن أسمع لمحمد بن أمير المؤمنين وأطيعه ولا أعصيه ، وأنصحه ولا أغشه ، وأوفى ببيعته وولايته ولا أغدر ولا أنكث · وأنفذ كتبه وأموره وأحسن مؤازرته ومكاتفته · وأجاهد عدوه فى ناحيتى ما وفى لى بما شرط لى ولعبد الله هرون أمير المؤمنين ورضى لى به وقبلته وان احتاج محمد بن

أمير المؤمنين الى جند وكتب الى يأمرنى باشخاصهم اليه أو الى ناحية من النواحى أو عدو من أعدائه خالفه وأراد نقص شىء من سلطانه الذى أسنده هرون أمير المؤمنين الينا ، وولاناه أن أنفذ أمره ولا أخالفه ولا أقصر فى شىء كتب به الى

« وان أراد محمد بن أمير المؤمنين أن يولى رجلا من ولده العهد من بعدى ، فذلك له ما وفى بما جعل لى أمير المؤمنين هرون . واشترط لى عليه ، وشرطه على نفسه فى أمرى . وعلى انفاذ ذلك والوفاء به ولا أنقض ذلك ولا أغيره . ولا أبدله ولا أقدم قبله أحدا من ولدى ولا قريبا ولا بعيدا من الناس أجمعين . الا أن يولى هرون أمير المؤمنين أحدا من ولده « العهد » بعدى فيلزمنى ومحمدا الوفاء بذلك

« وجعلت لأمير المؤمنين هرون ولمحمد بن أمير المؤمنين جميع ما اشترط لى هرون أمير المؤمنين فى نفسى . وما أعطانى أمير المؤمنين من جميع الاشياء المسماة فى الكتاب الذى كتبه لى ، وعلى عهد الله وميثاقه وذمة أمير المؤمنين وذمتى ، وذمم آبائى وذمم المؤمنين وأشد ما أخذ الله على النبيين والمرسلين وخلقه أجمعين من عهوده ومواثيقه والايمان المؤكدة التى أمر الله بالوفاء بها . فان أنا نقضت شيئا مما شرطت وسميت فى كتابى هذا أو غيرت أو بدلت أو نكثت أو غدرت فبرئت من الله ومن ولايته ومن دينه ومن محمد رسول الله ولقيت الله يوم القيامة كافرا به مشركا وكل امرأة هى اليوم لى أو أتزوجها الى ثلاثين سنة طالق ثلاثا البتة .. طلاق الحرج . وكل مملوك لى اليوم أو أملكه

الى ثلاثين سنة أحرار لوجه الله ، وعلى المشى الى بيت الله الحرام الذى بمكة ثلاثين حجة نذرا واجبا على وفى عنقى حافيا راجلا لا يقبل الله منى الا الوفاء به . وكل مال هو لى اليوم أو أملكه الى ثلاثين سنة هدى بالغ الكعبة . وكل ما على لعبد الله أمير المؤمنين ما فى هذا الكتاب لا أضمر غيره ولا أنوى سواه » ..

وشهد الشهود الذين شهدوا على أخيه محمد ابن أمير المؤمنين

وقد كانت هذه غلطة كبرى لم يسبق اليها . فلم يعهد أحد قبل الرشيد لاثنين يتوليان فى وقت واحد ، لأنه كان من البداهة أن الخليفة لا يمكن أن يتسع صدره لمنافس له . وتلك حال طبيعية .. ولكنه كان تحت ضغط عقله وعاطفته . فهو يحب الأمين وتطن فى آذانه نغمة زبيدة والفضل بن الربيع باستمرار ليعهد الى الأمين

وعقل الرشيد يدعوه لأن يبايع أكفأ أولاده .. وكان المأمون من غير شك أكفأهم . فسمع لعقله ببيعة المأمون .. وسمع لعاطفته ببيعة الأمين

ولو خضع لعقله الأعلى لبايع المأمون وحده . واعتمد على الكفاية وحدها . وعلم أن الملك لا يتسع لرجلين كالالوهية . والله تعالى يقول : « لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدنا »

ولم يعتبر هرون الرشيد بتجارب الأمم ، وأحداث الزمان ، فكان من أشهر الحوادث التى فيها عبرة ما حدث

للاسكندر .. فقد كان ملكه أكبر من ملك الرشـيد . ولما مات اقتسم قواد أربعة ملكه ، فملك بطليموس مصر وجزءا من سوريا وملك آخر مقدونيا وبلاد اليونان . وملك الثالث بعض أجزاء آسيا الصغرى . وملك الرابع من البحر الاسود الى نهر السند .. ومع ذلك ظلوا يتنافسون ويتقاتلون حتى انحطت مقدونيا لهذه الفتن الداخلية ، وانتهت هذه المأساة باستيلاء الرومانيين على بلاد اليونان وضمها الى أملاكها .. حتى أصبحت اليونان جزءا من مملكة الرومان تفقد استقلالها وتعيش تحت حكمها .. وهكذا أحداث التاريخ ..

□

وشيء آخر جره هـذا التصرف وهو أن أبناءه هؤلاء لما طمعوا فى الملك استثقلوا حياته ، وتمنوا موته . حتى شكا الرشيد لبعض خاصته من أولاده ، وقال : « انهم يحصون على أنفاسى .. اننى السـاعة أدعو ببرذون فيجيئونى به أعجف ليزيدوا فى علتى » ...

ومما زاد الطين بلة أمران :

أولهما ، أنه أحيا العصـبية البغيضة الى أقصى حد . فتعصب العرب للأمين ، وتعصب الفرس للمأمون . وتقاتلا قتالا عنيفا شديدا تذكيه هـذه العصبية ، حتى اذا انتهت الحرب العنيفة لم يعد العنصران نافعين كما ذكرنا

وثانيهما ، انه وضع القوة الحربية كلها فى يد المأمون .. وكانت القوة الحربية التى فى يد الأمين مصطنعة لا تمدها الا العصبية العربية . ولذلك انتصر المأمون .. يضاف الى

ذلك أن العرب قد غلبهم الفرس وأخضعوهم وأذلوهم من أول بدء الخلافة العباسية الى عهـد المأمون ، فلم تكن فيهم بقية صالحة

▭

ويروون أن الكتاب لما رفع ليعلق وقع ٠٠ فقيل ان هذا الأمر سريع الانفضاض ، وكذلك كان ٠٠ فلم تنفع المواثيق والايمان بجانب ما فى النفس البشرية من طمع وحـــرص وكراهية للمشـــاركة فى الملك والسلطان ٠ وقد حـــدثت الرشيد نفسه بهذا ، وتوقع الشر بينهما علما بالطبيـــعة البشرية ٠ فروى الكسائى ، قال :

« دخلت على الرشيد ، فلما قضيت حق التسليم والدعاء وثبت للقيام ٠ فقال : « اقعد » فلم أزل عنـده حتىً خف عامة من كان فى مجلسه ، ولم يبق الا الخاصة ٠ فقال لى : « يا على ، ألا تحب أن ترى محمدا وعبـد الله ؟ » ٠ قلت : « ما أشوقنى اليهما يا أمير المؤمنين » ، وأسرنى بمعـــاينة نعمة الله على أمير المؤمنين فيهما » ٠ فأمر باحضارهما ، فلم ألبث أن أقبلا ٠٠ ككوكبى أفق يزينهما هدوء ووقار ، قد غضا أبصارهما وقاربا خطوهما ٠حتى وقفا على باب المجلس فسلما على أبيهما بالخلافة ودعوا له بأحسن الدعاء٠فأمرهما بالدنو منه ٠ فصير محمدا عن يمينه وعبد الله عن يساره ٠ ثم أمرنى أن أستقرئهما وأسألهما ففعلت ٠ فما سألت عن شىء الا أحسنا الجواب فيه والخروج منه٠فسر بذلك الرشيد حتى تبينته فيه٠ثم قال لى : « يا على٠٠كيف ترى مذهبهما

وجـوابهما » . فقلت : « يا أمير المؤمنـــين هما كما قال الشاعر » :

أرى قمرى مجد وفرعى خلافة يزينهما عرف كريم ومحتد

« يا أمير المؤمنين .. هما فرع زكا أصله وطاب مغرسه. وتمكنت فى الثرى عروقه وعذبت مشـاربه . أبوهما أغر نافذ الأمر واسع العلم عظيم الحلم ، وسـيحكمان بحكمه ويستضيئان بنوره وينطقان بلسانه ، ويتقلبان فى سعادته

« فما رأيت أحدا من أولاد الخلفاء وأعضاء هذه الشجرة المباركة أعذب ألسنا ، ولا أحسن ألفاظا ، ولا أشد اقتدارا على تأدية ما حفظ منهما . ودعوت لهما دعاء كثيرا . وأمن الرشيد على دعائى ثم ضمهما اليه وجمع يديه عليهما ، فلم يبسطهما حتى رأيت الدموع تنحدر على صدره ثم أمرهما بالخروج

« فلما خرجا أقبـل على فقال : (كأنك بهما وقـد حم القضاء ونزلت مقادير السماء وبلغ الكتاب أجله . قد تشتتت كلمتهما واختلف أمرهما . ثم لم يبرح ذلك حـتى تسفك الدماء وتقتل القتلى وتهتك ستور النساء ويتمنى كثير من الاحياء انهم فى عداد الموتى) . قلت : (أيكون ذلك يا أمير المؤمنين لأمر رؤى فى أصل مولدهما . أو لأمر وقع لأمير المؤمنين فى مولدهما) . فقال : (لا والله .. انما بأثر حمله العلماء عن الاوصياء عن الانبياء) .

ومرة أخرى ، قال لمروان الخادم : « على بيحيى .. فما لبث أن أتاه » . فقال : « يا أبا الفضل .. ان رسول الله مات فى غير وصية والاسلام جذعة والايمان جديد . وكلمة

العرب مجتمعة . فقد آمنها الله تعالى بعد الخوف وأعزها بعد الذل . فما لبث أن ارتد عامة العرب على أبى بكر . وكان من خبره ما قد علمت وان أبا بكر صير الأمر الى عمر .. فسلمت الأمة له ، ورضيت بخلافته، ثم صيرها عمر شورى فكان بعده ما قد بلغك من الفتن حتى صارت الى غير أهلها. وقد عنيت بتصحيح هذا العهد وتسييره الى من أرضى سيرته وأحمد طريقته وأثق بحسن سياسته. وآمن ضعفه ووهنه ، وهو عبد الله « المأمون » وبنو هاشم مائلون الى محمد «الأمين» بأهوائهم . وفيه ما فيه من الانقياد لهواه والتصرف مع طويته والتبذير لما حوت يده ومشاركة النساء والاماء فى رأيه

« فان ملت الى عبد الله أسخطت بنى هاشم ، وان أفردت محمدا بالأمر لم آمن تخليطه على الرعية . فأشر على فى هذا الأمر برأيك فلك مشورة يعم فضلها ونفعها . فانك بحمد الله مبارك الرأى لطيف النظر »

فقال : « يا أمير المؤمنين ان كل زلة مستقالة ، وكل رأى يتلافى خلا هذا العهد . فان الخطأ فيه غير مأمون والزلة فيه لا تستدرك . وللنظر فيه مجلس غير هذا . فعلم الرشيد انه يريد الخلوة . قال الاصمعى : « فأمرنى بالتنحى .. فقمت وقعدت فى ناحية بحيث أسمع كلامهما .. فما زالا فى مناجاة ومناظرة طويلتين حتى مضى الليل وافترقا على أن عقد الرشيد الأمر لعبد الله مع محمد »

وهكذا كان الرشيد ، كأنه يقرأ حجب الغيب ، وكان

يتخوف من النتائج التى قد تنجم من هذا العهد ‥ ويفكر ويطيل التفكير ويستشير ويكثر الاستشارة

فما مات الرشيد حتى نقض الأمين العهـــد ، وأراد أن يخلع المأمون وينفرد بالسلطان ‥ فكان بينهما من الحروب ما لا نتعرض له الآن

وعلى كل حال ، كانت هذه عقدة نفسية عند الرشيد‥ حلها بهذا الشكل الذى لم ينجح

نهاية الرشيد

مرض الرشيد وموته

وفجأة أحس الرشيد مرضا .. فبال في قارورة ودس قارورته في قوارير المرضى بعد أن أعلمها . ثم عرضت القوارير على الطبيب ، وكان فحص البول معروفا في عصر الرشيد. فلما نظر الطبيب الى قاروة الرشيد قال : «عرفوا صاحب هذا الماء انه هالك .. فليوص ، فانه لا برء له من هذه العلة .. فبكى الرشيد وجعل يردد هذين البيتين :

ان الطبيب بطبـــه ودوائه لا يستطيع دفاع محذور أتى
ما للطبيب يموت بالداء الذى قد كان يبرى مثله فيما مضى

واشتد ضعفه وأرجف الناس بموته .. فدعا بحمـــار ليركبه ، فهدلت فخذاه . فلم يثبت على السرج ، فقال : « أنزلونى ، صدق المرجفون » . وأثرت فى نفسه هـــذه النبوءة حتى كان يحلم بها

يحدثنا جبريل بن بختيشوع ، فيقـــول : « كنت مع الرشيد فى قصره فى الرقة ، وكنت أول من يدخل عليه فى كل غداة ويتعرف حاله .. فان كان أنكر شيئا وصفه ثم يتبسط فيحدثنى بحديث جواريه ، وما عمله فى مجلسه، ومقدار شربه وساعات جلوسه ، ثم يسألنى عن أخبار العامة وأحوالهم .. فدخلت عليه فى هذا اليـــوم فلم يكد يرفع طرفه ، ورأيته مفكرا مهموما ، فوقفت بين يديه مليا ، فلما

طال ذلك أقدمت عليه • فقلت : « يا سيدى •• جعلنى الله فداك ، ما حالك هكذا • أعلة فأخبرنى بها » فلعله يكون عندى دواؤها • أو حادثة فى بعض من تحب ، فذلك ما لا يدفع ولا حيلة فيه الا التسليم ، والغم لادرك فيه • أو فتق ورد عليك فى ملكك • فلم تخل الملوك من ذلك • وأنا أولى من أفضيت اليه بهذا الخبر »

فقال الرشيد : « ليس غمى وكربى بشىء كما ذكرت » ولكن لرؤيا رأيتها فى هذه الليلة وقد أفزعتنى »

فقلت : « اذلك الغـــم كله لرؤيا ، وهى أما تكون من خاطر أو من بخارات رديئة أو من تهاويل السوداء • وانما هى أضغاث أحلام • فما هى اذا ؟ »

قال : « رأيت كأنى جالس على سريرى هذا اذ بدت من تحتى ذراع أعرفهـــا ، وكف أعرفهـــا •• وفى الكف تربة حمـــراء ، قال لى قائل أسمعه ولا أرى شخصه : « هذه هى التربة التى تدفن فيها» • فقلت: « وأين هذه التربة ؟»قال: «فى طوس» وغابت اليد وانقطع الكلام ، فقلت : « ياسيدى هذه والله رؤيا بعيدة •• أحسبك أخذت مضجعك ففكرت فى خراسان وحروبها ، وما قد ورد عليـــك من انتقاض بعضها »

قال : « لقدكان ذلك » •• قلت : « فلذلك الفكر خالطك فى منامك فولد هذه الرؤيا • فلا تحفل بها واتبع هذا الغم سرورا يخرجه من قلبك »

فسرى عنه وأمر باعداد ما يشـــتهيه ويزيد فى لهـــوه ونسينا تلك الرؤيا •• وما خطرت لنا بعد على بال •• ثم

سار الى خراسان ، فلما كان فى بعض الطريق ابتدأت به العلة . فلم تزل تتزايد حتى دخلنا طوس

فذكر الرشيد تلك الرؤيا فوثب متحملا لقوم ويسقط ، فاجتمعنا اليه كل يقول: يا سيدى .. ما حالك وما دهاك . فقال : « يا جبريل أتذكر رؤياى بالرقة ، ثم رفع رأسه الى مسرور وقال جئنى من تربة هذا المكان . فمضى مسرور فأتى بتربة حمراء . فقال الرشيد هذه والله هى التربةالتى رأيتها فى منامى ، وأقبل على البكاء والنحيب ثم مات بها . وذكر وهو يجود بنفسه قول الشاعر :

وانى من قوم كرام يزيدهم   شماساوصبرا شدة الحدثان

ومات وهو ابن خمس وأربعين سنة .. ويحدثنا المؤرخون أنه كان جميلا وسيما أبيض جعد الشعر .. وقد وخطه الشيب فى آخر أيامه

خاتمة

ونحن اذا أحصينا عمر الخلفاء الأمويين والعباسيين وجدنا متوسط حياتهم بين الخمسة والأربعين والخمسين ، وبعبارة أدق حول ٤٨ سنة . وانما قصر عمرهم لشدة مشاغلهم وافراط أكثرهم فى الشهوات ، وتحملهم أكبر المسئوليات ، وتناسلهم من أصل قصر عمره

وذكر المسعودى أن محمد بن على العبدى العباسى الخراسانى الاخبارى أن الخليفة القاهر ، وكان شديدا متقلبا متلونا يهابه الناس ويخشون صولته . قال للعبدى

هذا : أخبرني عن بني العباس أخلاقهم وشيعهم ، من أبي العباس الى من دونه

فقال العبدي : « على أن لى الأمان يا أمير المؤمنين »

قال : « ذلك لك »

قلت : أما أبو العباس عبد الله فكان سريعـــا الى سفك الدماء واتبعه عماله فى الشرق والغرب واستنوا بسيرته . أما المنصور فكان والله أول من أوقع الفرقة بين ولد العباس ابن عبد المطلب وبين آل أبى طالب . وقد كان أمرهم قبل ذلك واحدا . وكان أول خليفة قرب المنجمين وعمل بأحكام النجوم وكان معه نوبخت المجوسى المنجم وأسلم على يديه. وابراهيم الفزارى المنجم وعلى بن عيسى الاسترلابى المنجم، وهو أول خليفة ترجمت له الكتب من اللغات الاعجمية الى العربية .. منها كتاب كليلة ودمنة وكتاب السند هند

« وترجمت له كتب أرسطاليس من المنطقيات وغيرها . وترجم له كتاب المجسطى لبطليموس وكتاب الارثماطيقى، وكتاب أقليدس وسائر الكتب القديمـــة من اليونانيـــة والرومية والفهلوية والفارسية والسريانية ، وخرجت الى الناس فنظروا منها وتطلعوا الى علمها ، وفى أيامه وضـــع محمد بن اسحاق كتاب المغازى والسير وأخبار المبتدأ . ولم تكن قبل ذلك مجموعة ولا معروفة ولا مصنفة ، وكان أول خليفة استعمل مواليه وغلمانه وصرفهم فى مهماته . وقدمهم على العرب فاتخذ ذلك الخلفاء من بعـــده من ولده فسقط العرب وزال بأسهم ، وذهبت مراتبهم

ولما أفضت الخلافة الى المنصور نظر فى العلوم وقرأ المذاهب

وارتاض فى الآراء ووقف على النحل ، فكثرت فى أيامه روايات الناس واتسعت عليهم علومهم ، وجاء بعده المهدى فكان سمحا سخيا كريما جوادا . فسلك الناس فى عصره سبيله وذهبوا فى أمرهم مذهبه واتبعوه فى مساعيهم . وكان من فعله فى ركوبه أن يحمل معه بدر الدراهم والدنانير . فلا يسأله أحد الا أعطاه ، وأمعن فى قتل الملحدين والمداهنين لظهورهم فى أيامه واعلانهم اعتقاداتهم فى خلافته ، لما انتشر من كتب مانى وديصان مما نقله عبد الله بن المقفع وغيره

« وترجمت فى أيامه كتب من الفارسية والفهلوية الى العربية ، فكثر بذلك الزنادقة وظهرت آراؤهم فى الناس، وكان المهدى أول من أمر الجدليين من أهل البحث من المتكلمين بتصنيف الكتب للرد على الملحدين واقامة البراهين على المعاندين ، وشرع فى بناء المسجد الحرام ، ومسجد النبى عليه السلام ، وبنى بيت المقدس . وقد كانت هدمته الزلازل

« وجاء بعده الهادى ، فكن جبارا عظيما وكان أول من مشت الرجال بين يديه بالسيوف المرهفة والاعمدة المشهورة والقسى الموتورة ، فسلكت عماله طريقته ويمموا منهجه وكثر السلاح فى عصره

« وجاء بعده الرشيد فكان مواظبا على الغزو والحج واتخاذ المصانع والآبار والبرك والقصور فى طريق مكة ومنها عرفات ومدينة النبى صلى الله عليه وسلم ، فعم الناس احسانه مع ما قلده به من حوله ثم بنى الثغور ومدن المدن

وحصن الحصون مثل طرسوس وأذنه وعمر المصيصه ومرعش ، وأحكم بناء الحرمين وغير ذلك من دور السبيل والمواضع للمرابطين ، واتبعه عماله وسلكوا طريقته وقفته رعيته مقتدية بعمله مستنة بامامته ، فغمط الباطل وأظهر الحق وأنار الاسلام وبرز على سائر الأمم . وكان أحسن الناس فى أيامه أم جعفر زبيدة بنت المنصور لما أحدثته من دور السبيل بمكة واتخاذ المصانع والبرك والآبار بهـا وطريقها المعروف الى هذه الغاية ، وما أحدثته من الدور للتسبيل بالثغر الشامى وطرسوس ، وما وقفت على ذلك من الوقوف ، وما ظهر فى أيامها من فعل البرامكة وجودهم وأفضالهم وما اشتهر عنهم من اتصالهم

« وكان الرشيد أول خليفة لعب بالصولجان فى الميدان ، ورمى بالنشاب فى البرجاس ، ولعب بالكرة والقبقاب وقرب الحذاق فى ذلك، فعم الناس ذلك وقلدوه فى فعله . وكان أول من لعب بالشطرنج والنرد من خلفاء بني العباس وقدم اللعاب ، وأجرى عليهم الرزق فسمى الناس أيامه لنضارتها وكثرة خيرها وخصبها أيام العروس الى كثير مما يجاوز النعت ويفاوت الوصف

قال القاهر : « أراك قد قصرت فى تفصيل أعمال زبيدة أم جعفر »

قلت : « يا أمير المؤمنين ميلا الى الاختصار وطلبا للايجاز»

قال : « زدنى فيها »

قلت: « نعم يا أمير المؤمنين، كان من فعلها وحسن سيرتها فى الجد والهزل ما برزت فيه على غيرها ، فأما الجد فالآثار

الجميلة التى لم يكن فى الاسلام مثلها مثل حفر العين المعروفة بعين المشاش بالحجاز وانفاقها الالوف على ذلك عدا ما كان فى وقتها من البذل وما عم أهل الفاقة من المعروف والخصب

« وأما الوجه الثانى ، فمما تتباهى به الملوك فى أعمالها وينعمون به فى أيامهم فهى أنها أول من اتخذ الآلات من الذهب والفضة المكللة بالجواهر وصنع لها الرفيع من الوشى حتى بلغ الثوب الذى اتخذ لها خمسين ألف دينار ۰ وهى أول من اتخذ الشاكرية من الخدم والجوارى يختلفون على الدواب فى جهاتها ويذهبون فى حوائجها برسائلها وكتبها، وأول من اتخذ القباب من الفضة والأبنوس والصندل وكلاليبها من الذهب والفضة ملبسة بالوشى والسمور والديباج ، وأنواع الحرير من الاحمر والاصفر والاخضر ، واتخذت الخفاف المرصعة بالجوهر وشمع العنبر ۰ ولما أفضى الأمر الى ولدها الأمين ، ورأت شدة شغفه بالخدم واشتغاله بهم ۰۰ اتخذت الجوارى المقدودات الحسان الوجوه وعممت رؤوسهن ، وجعلت لهن الطرر والاصداغ ، والاقفية وألبستهن الاقبية والقراطق والمناطق فبانت خدودهن وبرزت أردافهن ، وبعثت بهن اليه فاختلفن فى يديه واستحسنهن واجتذبن قلبه اليهن وأبرزهن للناس واتخذ الناس من الخاصة والعامة الجوارى المطمومات وألبسوهن الاقبية والمناطق وسموهن الغلاميات

الخلاصة

ونحن اذا لخصنا أوصاف الرشيد من كل ما رأينا ،

عرفنـــا أنه كان فى جسمه : أبيض جميلا ، جعد الشعر ، قد وخطه الشيب ٠٠ وفى عقله : مثقفا واسع الثقافة فى العربية والفارسية ٠٠ وفى أخلاقه : حاد العاطفـــة ، قد يغضب لأتفه سبب ، ويقتل لأتفه سبب ويعفو لاتفـــه سبب ، يجد لابعد حد فيحارب حروب الابطال ويتغلب على كل الثورات،ويصلى ويحج ويقود الصائفة أحيانا والشاتية أحيانا ، ويتباهى فيأتى بالعجب العجـــاب أمام الوفود والزائرين ، ويتخاشع فيبكى بكاء مرا ، ويلهو فتكون له المجالس الرائعة فى الغناء والرقص وما الى ذلك ٠٠

وهذه كلها نتيجة العاطفة الحادة ٠٠ وله الى جانب ذلك ضمير حى يقتل البرامكة أحيانا ثم يحزن لفقدهم ، ويقتل الطالبى ويحزن لقتله ، ويحبس ثم يندم فيطلق ، ويقول فيحسن القـــول ، ويشرف على أولاده فيحسن تربيتهم ، ويسمع الشعر فيتذوقه

ويظهر أنه كان متدينا شديد التدين ولكن ليس واسع الصدر فى دينه سعةابنه المأمون٠٠بلغه مرة أن بشرا المريسى يقول بخلق القرآن،فقال والله لئن وجدته لأقتلنه٠فايمان الرشيد كايمان العجائز ، وكان وديعا حتى ليصـــب الماء على يد ضيفه اذا كان من العلماء ٠ وقد روى أبو معاوية ، قال : أكلت مع الرشيد يوما ثم صب على يدى رجل لا أعرفه ، ثم قال الرشيد : أتدرى من يصب على يديك ؟ قال : لا ، قال الرشيد : أنا اجلالا للعلم !

وكان قريب الدمع مما يدل على شدة عاطفته ، حتى قال منصور بن عمار : ما رأيت أغزر دمعا عند الذكر من ثلاثة:

الفضيل بن عياض ، والرشيد ، وآخر ..

وكان كريما ، فكم روى من عطائه مئـــات الالوف .. اما لمغن يجيد الغناء ، أو لواعظ يحسن الوعظ فيبكيه ، أو لشاعر يمدحه فيعرف كيف يمدحه أو غير ذلك

وقد قالوا انه كان يقتفى أثر جده المنصور فى حزمه وشدته واحساسه بالتبعة الا البخل .. فقد عرف المنصور ربه وعرف الرشيد بالكرم ، وزاد الرشيد قوة وعظمـــة كثرة النابغين حوله فى مختلف العلوم والفنون ، فالاصمعى فى اللغة ، وأبو يوسف فى الفقه ، واسحاق الموصـــلى فى الغناء ، والبرامكة للوزارة مما جعل قصره كعبة يحج اليها وعروسا تتباهى بجمالها ..

ولم نجد له نظيرا فى الخلفاء ، يجد فيحسن الجد ، ويلهو فيجيد اللهو .. بل هم فى الاغلب الأعم اما جاد لا يلهو كجده المنصور ، أو لا يجد كابنه الأمين

والمظنون من جميع الاوصاف التى ذكروها أنه مـــات بالسرطان ، وقد قالوا انه لما حضرته الوفاة غشى عليـــه ، ففتح عينيه فرأى الفضل بن الربيع فقال : يا فضل

أحـــين دنا ما كنت أخشى دنوه
رمتنى عيون الناس من كل جانب
فأصبحت مرحوما وكنت محسدا
فصبرا على مكروه أمن العـواقب

أمين دنا ما كنت أرجو دنوه رمتنى عيون الناس من كل جانب
فأصبحت مرحوما وكنت محسدا فصبرا على مكروه أمن العواقب

فرحمة الله عليه

جدول بأهم الأحداث التى وقعت فى عهد الرشيد

من سنة ١٧٣ الى سنة ١٩٣ الهجرية

سنة	
١٧٣	موت الخيزران
١٧٥	موت الليث بن سعد
١٧٥	عهد الرشيد لابنه محمد بولاية العهد
١٧٦	هاجت الفتنة بدمشق بين اليمنية والمضرية
١٧٧	ولاية هرثمة بن أعين بلاد أفريقية
١٧٨	فتنة أهل الحوف بمصر
١٧٩	موت الامام مالك
١٧٩	سير جعفر بن يحيى البرمكى الى الشام لاخماد العصبية بين اليمنية والمضرية فسكنها
١٨٤	موت يزيد بن مزيد الشيبانى أحد قواد الرشيد
١٨٦	حج الرشيد ومعه وليا عهده الأمين والمأمون
١٨٧	مبايعة الرشيد لإبنه القاسم بولاية العهد بعد المأمون
١٨٧	نقض نقفور العهد للرشيد
١٨٧	عودة الفتنة بين المضرية واليمنية فى الشام
١٨٧	نكبة البرامكة
١٨٩	سير الرشيد الى الرى لعدم اطمئنانه الى أهل خراسان
١٩٣	موت الفضل بن يحيى
١٩٣	خروج الرشيد الى طوس
١٩٣	موت الرشيد

فهرس

صفحة

رقم الايداع: ١٦٧٢/ ٢٠٠٤
I.S.B.N
977-07-1020-2

هذا الكتاب

هارون الرشيد - العدد الثالث من «كتاب الهلال» - هو لون جديد من الثقافة التاريخية، وترجمة شائقة لحياة هذا العاهل العظيم الذى طبقت شهرته الأقطار، وكان يحكم دولة عربية اتسعت رقعتها حتى فاقت مساحة أوربا، وبلغت حضارة الإسلام أوجها فى عصره الذهبى، ودانت له الممالك والأمصار، وخطب وده الملوك والأمراء. وكانت بغداد عروس المدن، ودرة الدنيا، ومدينة النور والسلام.

وقد جلا مؤلف هذا الكتاب حياة الرشيد الخاصة والعامة، وصور فى تشويق عصره الذهبى من جميع نواحيه السياسية والأدبية والاجتماعية، وكشف عما فيه من محاسن وعيوب فى صراحة وصدق، وقدم هارون الرشيد انسانا وملكا وخليفة للمسلمين.

وعلى الرغم من أن عصره امتاز بالأبهة والترف، فقد بلغت فيه العروبة أوج مجدها وكرامتها. وكان الشرق فى أيامه يحكم الغرب ويوجه مصائر الأمم، ويحمل مشاعل العلوم والآداب والحضارة الانسانية.. فأجدر بنا فى كتاب الهلال أن نذكر الأمم العربية الآن بهذا المجد التالد، وما كان للعرب من قوة وصولة، وحرية واستقلال.

الثمن ١٢ جنيهاً